الإمام يوسف القرضاوي

رسالة الأزهر

بين

الأمس واليوم والغد

النادي الشبابي

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
تليفون: ٣٩١٧٤٧٠ - فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

الإمام
يوسف القرضاوي

رسالة الأزهر

بين
الأمس واليوم والغد
بمناسبة الاحتفال بعيده الألفي

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تلفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

النادي الشبابي

اسم الكتاب: رسالة الأزهر
بين الأمس واليوم والغد
اسم المؤلف: الإمام يوسف القرضاوي
الطبعة الثالثة
١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة.
١٢٨ صفحة ١٤×٢٠سم
رقم الإيداع: ٨٤/٤٩٨٧
الترقيم الدولي:
977-307-027-9

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأى وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أى نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر أو المؤلف.

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical,photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the puplisher or of the a uthor

النادي الشبابي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحببت الأزهر منذ صباي المبكر، وشغفت به، وتمنيت أن أكون واحدًا من علمائه. فقد كان الأزهر في نظري معقل الدين والعلم. وعلى أيدي علمائه في قريتنا، يتعلم الجاهلون، ويهتدي الحائرون، ويتوب العاصون.

ولما حفظت القرآن الكريم بعد التاسعة بقليل، ظللتُ أترقب اليوم الذي أدخل فيه معاهد الأزهر، لأتعلم فيه الدين واللغة والأدب، وأقدر على الخطابة والتدريس والوعظ، مثل مشايخ قريتي الذين سمعتهم في صغري وتأثرت بهم: الشيخ أحمد محمد صقر، والشيخ أحمد عبدِ الله، والشيخ أحمد البتّة رحمهم الله جميعًا، والشيخ عبد المطلب البتة حفظه الله.

وحين قدر الله لي دخول الأزهر، مبتدئا بمعهد طنطا الابتدائي، ومثنيا بمعهدها الثانوي، ومثلثا بكلية أصول الدين، ثم بإجازة التدريس.. كنت مهتما بكل ما يصلح الأزهر، ويرفع شأن أبنائه، وينهض بهم في أداء رسالتهم التي هي رسالة الإسلام، ويزيل المعوقات من طريقهم، حتى يقوموا بمهمتهم خير قيام.

فكنت أحضر وأنا طالب في القسم الابتدائي -المعادل للإعدادي الآن- مع طلاب القسم الثانوي، ممثلاً لزملائي، في المناداة بمطالب الأزهريين، ومساواتهم بغيرهم من خريجي الجامعات المصرية.

وفي المرحلة الثانوية شاركت في عدة مؤتمرات عقدناها في طنطا وفي غيرها من عواصم المديريات (المحافظات)، حضرها ممثلون عن المعاهد الدينية في أنحاء المملكة المصرية (لم تكن الجمهورية قد نشأت بعد) حددنا فيها مجموعة من المطالب، ونقلناها إلى المسئولين بالأزهر وبالحكومة. أذكر منها:

١- إدخال اللغة الإنجليزية إلى معاهد الأزهر.

٢- فتح باب الكليات العسكرية والمدنية أمام حملة الثانوية الأزهرية.

٣- فتح معاهد دينية للبنات فهن نصف المجتمع، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

٤- إتاحة الفرصة للمتفوقين بإعادة فتح باب الدراسات العليا، وتعيين معيدين بكليات الأزهر.

٥- إعادة النظر في المناهج والكتب الدراسية.

ولم نكن نكتفي بعقد المؤتمرات، ورفع المطالب والتوصيات، بل كنا أحيانًا نقيم المظاهرات، أو ندعو إلى الاضراب، وكثيرًا ما جعلنا هذا نصطدم بالشرطة، ونبيت في «الأقسام» ونتعرض للإيذاء من أجل الأزهر.

وفي المرحلة الجامعية تبلورت المطالب وتحددت أكثر من قبل. وقد التقينا مع عدد من المسئولين في الأزهر للحوار حول هذه القضايا: فكان منهم المتجاوب إلى أقصى حد، كالمغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ

محمد الخضر حسين. ومنهم من لم يعر هذه التطلعات بالاً، واعتبرها أماني بعيدة المنال.

ولازلت أذكر آخر مؤتمر عقدناه -وأنا طالب في تخصص التدريس سنة ١٩٥٣- في ساحة كلية الشريعة بالدرّاسة، حضره أبناء الكليات الثلاث[١]، ومعهد القاهرة ومعهد البعوث، وتحدثت فيه طويلاً عن مطالبنا وتطلعاتنا الدينية والعلمية والأدبية والاجتماعية.

وأذكر أنني ابتدأت هذا المؤتمر الحاشد بقصيدة لازال إخواني الأزهريون يحفظون بعضها، ويذكرونني بها إذا لقوني. ولم أَعدُ أحفظ منها إلا أبياتًا قليلة، فقد ضاعت فيما ضاع من شعري في أتون المحن المتتابعة التي ابتليت بها مصر، ودعاة الإسلام فيها.

من هذه الأبيات:

صبرنا إلى أن ملَّ من صبرنا الصبرُ! وقلنا: غدا أو بعده ينجلي الأمرُ!
فكان غد عاما، ولو مد حبله فقد ينطوي في جوف هذا الغد الدهر!
وقلنا: عسى أن يدرك الحق أهله فصاحت «عسى» من «لا» و«لا» طعمها مر!
وماذا علينا بعد أن فار مِرْجَلٌ من الغيظ والآلام يغلي به الصدر؟!
سددنا بطول الصبر منا صمامه فزادت عليه النار، فانفجر القدر؟!

وفي هذه الفترة ١٩٥٢/ ١٩٥٣ - بعد أن أوقفت معارك القناة، التي

(١) وهي: كليات أصول الدين والشريعة واللغة العربية.

شارك فيها الأزهر بكتيبته التي ذهبت إلى الشرقية، واحتفل بها في قاعة الشيخ محمد عبده بالدراسة في يوم من أيام الأزهر الخالدة - عدنا إلى القاهرة لنوجه عناية أكبر إلى إصلاح الأزهر من داخله، وبعث الحيوية في كلياته، ومعاهده، ليتبوأ مكانه في قيادة الأمة تحت لواء الإسلام كما كان من قبل.

وبعد تفكير وبحث وحوار، قررنا أن ننشئ لجنة سميناها «لجنة البعث الأزهري».

وليسمح لى القارئ أن أنقل له هنا أهداف هذه اللجنة ووسائلها كما وجدتها في أوراقي القديمة.

لجنة البعث الأزهري

مجموعة من شباب الأزهر آمنوا بربهم ورسالتهم، وآلوا على أنفسهم أن يرفعوا صرح الأزهر عاليًا، أو يموتوا تحت أنقاضه.

• أهدافها:

١- المساهمة في إيقاظ الوعي الإسلامي وتكوين جيل جديد يفقه الإسلام ويعمل به ويجاهد في سبيله.

٢- جمع أبناء الأزهر من خريجيه وطلابه حول هذا الهدف الرفيع.

٣- إصلاح أوضاع الأزهر ومناهجه إصلاحًا شاملاً؛ يمكنه من حمل رسالة القرآن إلى العالم الإسلامي والعالم الإنساني.

٤- تأمين مستقبل الثقافة الإسلامية المهددة، وإيجاد الينابيع الدائمة التي تصب في الأزهر، وذلك بتقرير حفظ أجزاء من القرآن في مدارس الدولة، وتكثير جمعيات التحفيظ وضمها إلى الأزهر.

• **وسائلها:**

١- تنبيه الرأي العام في داخل الأزهر وخارجه إلى رسالة الإسلام، وقضية الأزهر، ذلك عن طريق إلقاء المحاضرات وتنظيم الندوات، وطبع الرسائل والنشرات.

٢- إعداد المراجع والتشجيع على البحث للناضجين من شباب الأزهر ليتخصصوا في شعب الثقافة الإسلامية المختلفة.

٣- العمل على إصدار مجلة دورية تنطق باسم شباب الأزهر.

٤- العمل على أن يكون قادة الأزهر وموجهوه من الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله.

وقد كلفني الإخوة الزملاء مؤسسو اللجنة [١] أن أبدأ بكتابة الرسالة الأولى من رسائلها، المعرِّفة بها، والمعبِّرة عن مهمتها.

ولم تكن أمامي إلا الاستجابة لهذه الرغبة وكتبت رسالة بعنوان «رسالتكم يا أبناء الأزهر» ولا زلت أذكر أني عرضتها على الداعية

(١) أذكر منهم الأخوة: أحمد العسال، وعلي عبد الحليم، ومحمد الراوي، ومحمد الصفطاوي، وحسن الشافعي، ومحمد عبد العزيز خالد، ومحمد الدمرداش مراد وغيرهم، ممن قضى نحبه وممن ينتظر.

الكبير الشيخ محمد الغزالي ليقرأها ويبدي ملاحظاته عليها، فأجاب ذلك مشكورًا، وقرأها، وقال عنها، إنها من أمتع ما قرأت، فكرة وعاطفة وأسلوبًا. وعرضتها كذلك على الداعية المفكر المربّي الأستاذ عبد العزيز كامل، فَسُرَّ بها كثيرًا، ولكنه نصحني بأن أخرِّج أحاديثها، حتى تأخذ الصيغة العلمية.

وتمت الرسالة وذهبت بها إلى المطبعة، وذلك في أواخر سنة ١٩٥٣، ولكن أحداثًا قاهرة حدثت في أوائل سنة ١٩٥٤، انتهت بنا إلى معتقل العامرية، ثم إلى السجن الحربي، فتوقف عمل اللجنة، كما توقف طبع الرسالة، واستردتها بعد ذلك من المطبعة. وظلت مطمورة ضمن أوراقي التي سلمت من الضياع في المحن المتتابعة التي لحقت بدعاة الإسلام فى مصر.

وحين بعث إليَّ الأخ الأستاذ الدكتور الحسيني أبو هاشم الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية والأخ الدكتور عبد الودود شلبي، المشرف على العدد التذكاري لمجلة الأزهر بمناسبة عيده الألفي، بطلب كتابة مقالة عن الأزهر في هذا العدد، رجعت إلى أضابيري، لأجد الرسالة القديمة مكتوبة بخط الأخ الكريم الشاعر الأديب الأستاذ محمد حوطر، الذي طالما سجل بقلمه، أحاديثي وخطبي بمدينة المحلة الكبرى.

ولقد وجدت أن في الرسالة أفكارًا ومعاني يجب أن تنشر من جديد، وإن كانت تحمل حرارة الشباب وحماسه المتوقد، كما رأيت أن

أعمل فيها يد التهذيب والإضافة والحذف والتعديل، وإن بقيت في جوهرها كما كانت قديمًا.

ومما حذفت منها مقدمتها: لأن شدتها لم تعد مناسبة للأوضاع، كما حذفت بعض المباحث لعدم ملاءمتها لما جد من أحوال، ولأن بعض ما نادت به قد تحقق فيما بعد.

وقد أعجبني فيما قرأته منها الإهداء في الصفحة الأولى، وكانت صيغته هكذا:

إلى كل مسلم يعنيه مستقبل الأزهر..

وإلى كل أزهري يعنيه مستقبل الإسلام..

وإلى كل عاقل يعنيه مستقبل الإنسانية..

أهدي هذه الرسالة..

عسى أن يتحرك المسلمون لتجديد رسالة الأزهر

وعسى أن يتحرك الأزهريون لتجديد رسالة الإسلام

وعسى أن يتحرك العقلاء لإنقاذ سفينة الإنسانية

كما أعجبني من تلك الرسالة خاتمتها المتوثبة توثب الشباب في كاتبها وفيمن وجهت إليه، ولا بأس أن أسجلها هنا كما وجدتها للتاريخ:

القضية الكبرى

«حذار يا شباب الأزهر أن تشغلنا قضيتنا الصغرى: قضية الأزهر، عن قضيتنا الكبرى: قضية الإسلام. الذي تألب المتألبون عليه، وافترق خصومه على أمور شتى، ولكنهم اجتمعوا على محاربته والكيد له، والتربص بأهله، والتعدي على حرماته، وبات يعاني الآلام، ويشكو الجراح من اليهودية العالمية، والشيوعية الدولية، والصليبية الغربية، والنزعات القومية، والشهوات الحزبية، والموجات الإلحادية، والإباحية.

وأصبحت بلاد الإسلام نهبًا مُقَسَّمًا في أيدي أعدائه، يستنزفون خيراتها، ويمتصون دماءها، ويوجهونها وجهتهم التي يريدون:

كم صرفتنا يد كنا نصرفها ... وبات يملكنا شعب ملكناه

أنَّى اتجهت إلى الإسلام في بلد ... تجده كالطير مقصوصا جناحاه

واجبنا مضاعف

• يا ابن الأزهر:

إذا كان بعض الناس يشعر بواجبه مرة واحدة في هذه المرحلة الدقيقة الحاسمة من تاريخنا فعليك أن تشعر بواجبك أربع مرات:

• أنت يا أخي مسلم:

والمسلم يعيش في هذه الحياة لهدف أسمى، ورسالة عظمى، لخصها الله تبارك وتعالى في كتابه بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا**

وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

فالمسلم في المحراب عابد خاشع، راكع ساجد.

وفي المجتمع بار خير، منتج نافع.

وفي ميادين الكفاح بطل مجاهد، وجندي مناضل.

فإياك أن تظن نفسك كمّاً مهملاً، وسطرًا مطموسًا، فإنما أنت منفذ أحكام الله في الأرض، ووارث رسالات النبيين، وحامل هداية الله إلى العالمين.

اختصك الله بأعظم كتاب أنزل، وأفضل نبي أرسل، وأكمل دين شرع ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

• وأنت يا أخي شاب:

والشباب حيوية هائلة، وطاقة جبارة، فإن الذي خلق الشمس وأودعها الضياء، وخلق النار وأودعها الحرارة، وخلق الحديد وأودعه الصلابة، خلق الشباب وأودعه الحيوية والعزيمة. ولو نظرت إلى التاريخ لرأيت الكثير من أعلام الهدى، وأنصار الحق كانوا شبابًا:

كان أتباع موسى شبابا ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ [يونس: ٨٣].

وكان أهل الكهف شبابًا ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

وكان من أصحاب الرسول ﷺ شباب، تقدموا الصفوف، وهل فينا مَنْ يجهل مثل علي، وأسامة، ومعاذ؟.

ومِن الشباب في الصدر الأول مَنْ كان يحمل راية العلم في السلم، وراية الجهاد في الحرب.

حفظ الشافعي القرآن وهو ابن سبع سنين، والموطأ وهو ابن عشر، وأفتى وهو ابن خمس عشرة، وصحح عليه الأصمعي أشعار البدويين وهو شاب.

ومما يفخر به تاريخ الشباب أن قائد الكتائب الإسلامية لفتح الهند التي تحوي الآن أكبر دولة إسلامية «باكستان» لم يكن إلا شابا في السابعة عشر ألا وهو «محمد بن القاسم» الثقفي الذي قال عنه الشاعر:

إن السماحة والمروءة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد

عاد الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤددًا من مولد

فإذا اعتذر الشيوخ لضعف القوة، وغلبة اليأس، وابيضاض الرأس، وإدبار الحياة، فما لك من عذر.

• وأنت يا أخي مثقف:

قد رشفت من رحيق الثقافة، واستنار عقلك بنور العلم، وللثقافة

ضريبة لا بد أن تُدْفع، وللعلم زكـاة لا مفر أن تُؤَدى، فعليك أن تُعَلِّم الجاهل، وتنبه الغافل، وتنشر الوعي، وتأخذ بيد الحائر.

واعلم أنك إذا قصّـرت فلن تجد من يعذرك، والجاهل قـد يُعذر إذا قصر، فأفقه ضيق، ونظره قريب، وعلمه محدود.

وقد قال شـوقي: «الجاهل غريب في وطنه، مقـبور في بدنه، رافل في كفنه».

أما الذي نوَّر الله بصيرته بالعلم، فمسئوليته أكبر، وعذره أقل.

العلم فضيلة توجب لصاحبهـا رفعة في الدنيا والآخرة، وهو كذلك تبعة توجب عليه مسئولية أمام الله والناس، وفي الحديث «**لا تزول قدما عبـد يوم القيامة حـتى يسئل عن أربع: عن عمـره فيما أفناه، وعن شـبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما عَلِم**»[1].

• وأنت يا أخي أزهري:

منَّ الله عليك فحفظـت كتابه الكريم، وهداك إلى معهـد تدرس فيه لغة القـرآن وأصول الإسـلام، وعلوم الشريعة، فـأنت - لو علمت - وارث الأنبياء، وهمزة الوصل بين الأرض والسماء، تؤدي أمانة العلم، وتبلغ رسالة الله -رسالة محمد ﷺ- رسالة الإسلام.

---

(١) رواه الترمـذي في صفـة القيامـة (٢٤١٧) عن أبي برزة الأسلمي، وقـال: هذا حديث حسن صحيح. وسعيـد بن عبد الله بن جريج هو بصري وهو مولى أبي برزة وأبو برزة اسمه نضلة بن عبيد، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٤٦).

فعليك ما على أصحاب الأمانات الكبرى من أعباء ثقيلة، وواجبات جَمَّة، فالهدف بعيد، والسفر طويل، والحمل ثقيل، وقطاع الطريق كثير، والسبيل محفوفة بالأشواك، مملوءة بالعقبات.

عليك أن تزيل الغشاوى من العيون لترى، والسداد عن الآذان لتسمع، والأكنة عن القلوب لتفقه، مستعينًا بالله متوكلاً عليه، معلنًا في الناس ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

ومعك الضياء الذي لا يخبو، والدليل الذي لا ينحرف. كتاب الله مَنْ علم علمه سبق «ومن قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حَكَمَ به عدل، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم»[1].

• يا أبناء الأزهر:

أنتم مسلمون، فعليكم واجب عظيم بقدر هدى العقيدة التي تميزكم عن الضالين.

وأنتم شباب. فعليكم واجب ثان بقدر الحيوية والحرارة التي تميزكم عن الشيوخ المحطمين.

وأنتم طلاب علم. فعليكم واجب ثالث بقدر الثقافة التي تميزكم عن الجاهلين.

---

(١) رواه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٦) وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال، ورواه الدارمي في سننه كتاب فضائل القرآن (٣٣٣١) والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٢٥) وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٥٣).

وأنتم حـملة رسالة الإسـلام فعـليكم واجب رابع بقدر الدراسـات الإسلامية التي تميزكم عن المدنيين.

• والآن.. يا أخي الأزهري:

إن مجدنا في الأولى والآخرة مرتبط بالعمل للإسلام، ونحن إن لم نكن به لم نكن أبدًا بغـيره، وهو إن لم يكن بنا كـان بغيرنـا، وقد نمنا زمنًا طويلاً؛ فـقيض الله للدين أفرادا وجـماعـات نفضت عنه غـباره، وذادت عن حِياضـه، ونشرت تعاليمه، وأحـيت في النفوس الأمل في سيادته.

ولولا نهوض في غـفلة الأزهر لكانت العاقـبة تسوء المـؤمنين وتسر الكافرين.. ولكن دين الله أعز عبده من أن يتخلى عنه ويتركه بلا دعاة وجنود.

فالبدار البدار يا إخوة.

والعمل العمل للإسلام.

فإن العالم الإسـلامي الآن يجتاز مرحلة دقـيقة من حيـاته، وشبابه المؤمن في كل قطر يعمل جاهدًا من أجل دينه.

وعلينا أن نقوم بواجـبنا الكامل في هذا الجهاد، وأن نشعل مـصابيح الهدى في ليل الشك الذي أطبق على المسلمين ظلامُه. لا ننتظر جزاء، إلا من الذي لا تضـيع عنده الودائع، رابطين حـاضرًا متـحفـزًا بماض مجيد، متطلعين إلى غد مزهر ومستقبل باهر.

• **يا شباب الأزهر:**

تستطيعون أن تكونوا قوة دافعة لهذا الركب المؤمن، وصوتًا عاليًا يجمع هذه القلوب على كلمة سواء، وأدلاء أمناء لهذه القوافل التي يحدو بها الإيمان إلى ربها.

ففي رحاب الأزهر صورة مصغرة للجامعة الإسلامية، وميدان يجب أن نصنع فيه النماذج الإسلامية الكريمة.

فإذا انتشرت في قراها وأقطارها كانت خير عنوان للإسلام، واستطاعت بعزم وعلم وعمل أن تحول الآمال إلى حقائق والفرقة إلى وحدة والتخلف إلى سبق بعيد.

هذه مهمتنا التي ندبنا أنفسنا لها، وينتظرها منا مجتمعنا، ويحاسبنا عليها ربنا.

فاعملوا.. فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون. وإن توليتم... يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.

الفقير إلى عفو ربه

دكتور يوسف القرضاوى

رسالة الأزهر
بين
الأمس واليوم والغد

من حق الأزهر على نفسه، ومن حق الإسلام والمسلمين عليه، أن يقف -وهو يحتفل بعيده الألفي- وقفة تأمل ومراجعة هادئة هادفة، ينظر فيها إلى تاريخه الحافل، وإلى حاضره الماثل، وإلى مستقبله المنشود. وذلك ليعرف موقعه من المجتمع، ومكانه من الأمة، ووظيفته في العالم، حتى يعد لذلك نفسه ويهيي لها أبناءه.

وكان علينا إزاء ذلك أن ننظر إلى أنفسنا وإلى العالم من حولنا، لنعرف مدى الحاجة إلى رسالة الأزهر- عالميا وإسلاميا وعربيا- وماذا يمكن أن يؤديه من دور.

• عالم اليوم في حاجة إلى منقذ:

العالم الآن يعيش في قلق: يمسي في ترقب، ويصبح في خوف.. الحرب الثالثة يمكن أن تقوم في لحظة من لحظات فقدان التوازن.. القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ الموجهة تهدد الإنسانية بالفناء.. القنبلة الواحدة من القنابل الحديثة تعادل كل ما ألقي على ألمانيا من مدمرات في الحرب العالمية الثانية، بل تزيد.. الصراع بين المعسكرين: الشرقي والغربي صراع حقيقي إن اختفى شبحه وراء

المجاملات وسياسة الوفاق حينا، فإنه يظهر على حقيقته في كثير من الأحيان.. آلاف الملايين - وربما البلايين - من الدولارات والروبلات والجنيهات والفرنكات وغيرها من العملات، من ميزانيات الدول تنفق في الشئون العسكرية والحربية، أي في الاستعداد للموت والخراب، على حين يهدد الموت شعوبا بأسرها في البلاد الأفريقية والآسيوية لما تعاني من الجوع، أو من سوء التغذية. فقد أثبتت أحدث الإحصاءات: أن ٦٠٠ مليار من الدولارات في سنة ١٩٨٢ صرفت على التسليح والشئون الحربية، بزيادة ٩٪ عن سنة ١٩٨١، على حين مات في العالم الثالث ٥٠ مليون إنسان من الجوع!

المجامع الدولية: هيئة الأمم المتحدة.. مجلس الأمن.. محكمة العدل.. لم تستطع إيجاد سلام حقيقي بين الأمم، ولا نشر الأمن العالمي، ولا إقرار العدل بنصرة الحق والحرية، ومعاونة الشعوب الصغيرة، ووقف مطامع الدول الكبرى، وتقليم أظافر الاستعمار والصهيونية.. ولازالت دولة مثل إسرائيل تعربد وتدمر، برغم قرارات هيئة الأمم ومجلس الأمن.

العلم الحديث والحضارة المادية والاكتشافات الجبارة لم توفر للإنسان الراحة والهدوء والطمأنينة والاستقرار.. وإن وفرت له وسائل الرفاهية والمتعة المادية، لم توفر له الأمن في النفس، ولا الأمن في البيت، ولا الأمن في المجتمع، ولا الأمن في العالم الكبير. لقد استطاع العلم أن يصعد بالإنسان إلى سطح القمر، ولكنه عجز أن يهيي له السعادة

على ظهر الأرض! الغرب الذي ملك أزمّة التكنولوجيا يشكو من الفراغ الروحي، والقلق النفسي، والاضطراب الأمني، والتخبط الاجتماعي، والتفسخ الأسري، والتحلل الخلقي. وما ظاهرة «الهيبز» وما شاكلها إلا نتيجة لهذا الفراغ والاضطراب، فهي ثورة على الحضارة المادية الآلية، التي تيسر للإنسان المادة وتسلبه الروح، ولا يشعر معها إلا بتفاهة الحياة، وخلوها من أي معنى أو رسالة.

ولقد قال بحق أحد الأمريكيين المعاصرين: إذا لم نكن واعين، فسيذكرنا التاريخ على أننا الجيل الذي رفع إنسانا إلى القمر، في حين هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات!!

ما أشبه الليلة بالبارحة!! ما أشبه العالم اليوم بالعالم قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام! كان العالم قبل البعثة تتنازعه دولتان كبيرتان: دولة الفرس الكسروية في الشرق، ودولة الروم القيصرية البيزنطية في الغرب، وعالم اليوم تتنازعه الكتلة الشرقية والكتلة الغربية: روسيا الشيوعية ومن يدور في فلكها من جانب، وأمريكا الرأسمالية ومن يحطب في حبلها من جانب آخر.

كان العالم قبل البعثة تسوده الجاهلية العمياء: جاهلية العقائد الباطلة، والأخلاق المنحرفة، والتقاليد الفاسدة، والنظم الجائرة، والسياسات المستبدة.

وعالم اليوم تسوده جاهلية جهلاء.. جاهلية على الطراز الحديث: أسوأ مخبرا وإن كانت أبهى منظرا.. جاهلية المادة التي تغفل الروح..

والدنيا التي تنسي الآخرة.. والعقل الذي ينكر. القلب.. والغريزة التي تغلب العقل.. والأثرة التي تطغى على الإيثار، والفوارق التي تبغي على الأخوة.. والقوة التي تسطو على الحق.. والشهوة التي تهزم الفضيلة! عالم اليوم كعالم الأمس، عالم ما قبل الإسلام: شبح بلا روح، وصورة بلا حقيقة، ومبنى بلا معنى، وبناء بلا أساس، وسراج بلا زيت!! وما ذلك إلا أنه دنيا بلا دين، وعلم بلا إيمان، وإنسان يحيا بغير معاني الإنسان! ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

عالم اليوم على شفا حفرة من النار، فمن ينقذه منها؟ من يكون «رجل المطافيء» الذي يمسك بخرطومه، ليطفئ النار قبل أن يتطاير شررها، ويتفاقم خطرها، ويكون وقودها الناس والعمران.

• حاجة البشرية إلى أمة ذات رسالة:

البشرية في حاجة عارمة أن تلقي بزمامها إلى أمة ذات رسالة وذات دين يطفئ سعارها المادي، ويروي ظمأها الروحي، ويملأ فراغها العقائدي، ويخلصها من أخطار القلق الفكري، والصراع النفسي، والاضطراب الاجتماعي، والتناحر السياسي، والتنافس الحربي.

نرى من تكون هذه الأمة التي يشرئب إليها عُنُقُ الزمن، ويرنو إليها بَصَرُ التاريخ؟

إنها لابد أن تكون أمة ذات دين..

• أمة اليهود لا تصلح لحمل رسالة الإنقاذ:

مستحيل أن تكون أمة اليهود! والتوراة المحرفة بما فيها من كذب على الله، وافتراء على أنبيائه، والتلمود بما فيه من تعاليم همجية، وأحكام غير أخلاقية، تستبيح كل ما عدا اليهود: دماء وأعراضا وأموالا ﴿**لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**﴾ [آل عمران: ٧٥]... لا يصلحان نبعا لهداية العالم الحائر.

واليهودية ليست دين امتداد وانتشار، والعنصرية بارزة في هذا الدين الذي يجعل من بني إسرائيل «شعب الله المختار» ويجعل رب الناس «رب إسرائيل» لا غير!! واليهودية خالية من الدفعة الروحية التي تحتاج إليها البشرية اليوم، ويهود اليوم أبعد الناس أن يكونوا جيش الخلاص وسفينة الإنقاذ للعالم.

إن الشعب المتمرد على أنبيائه «الصلب الرقبة» كما عبَّر كتاب اليهود نفسه: «التوراة»!

و«خراف بني إسرائيل الضالة» و«أبناء الأفاعي» كما عبر الإنجيل!

وقتلة الأنبياء ممن ﴿**لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**﴾ [المائدة: ٦٠] كما عبَّر القرآن.

ومصدر القلاقل والفساد في الأرض، في شتى البقاع، كما عبَّر التاريخ.

وجرثومة الفتن والاضطرابات في العالم شرقيه وغربيه، كما يعبِّر الواقع.

هؤلاء لا يمكن أن يكونوا حملة رسالة الهداية والإنقاذ للبشرية المعذبة. ففاقد الشيء لا يعطيه.

أجل.. فهم عبدة المال، وسدنة الربا، وتجار الحروب، وسماسرة الموت، وهم وراء كل فساد وشذوذ واضطراب في دنيا الناس. وإن ما فعلوه في فلسطين مع أهلها العرب من قبل، وما فعلوه في بيروت وصبرا وشاتيلا من بعد، لأنصع برهان على أنهم أبعد الناس عن حمل رسالات الله.

• الأمم المسيحية لا تصلح للإنقاذ:

ولا يمكن أن تكون أمم المسيحية.

فالعالم الذي تسوده المسيحية وتحرك أزراره أصابع الكنيسة المختفية، هو صاحب الزعامة العالمية منذ قرون، ولكنه أفلس في إشاعة الحق والخير، وإقرار المحبة والسلام، وإرساء قواعد الأمن والإيمان.

العالم المسيحي حكم الدنيا بروح صليبية لا بروح مسيحية... وفرق كبير بينهما: المسيحية عنوانها المحبة والمسامحة، والصليبية عنوانها الحقد والتعصب! المسيحية تقول: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن سخرك لتسير معه ميلا، فسر معه ميلين، ومن سرق قميصك فأعطه إزارك! والصليبية تقول: من فتح لك بابه فادخل داره، واسرق متاعه، وأفسد عليه زوجته وأولاده، ومن لم يفتح لك الدار، فاكسر الباب أو اثقب الجدار!!

على أن المسيحية نفسها - بعيدة عن الصليبية - لا تستطيع أن تكون قوة حقيقية تواجه الأفكار المادية الجديدة، «فهي ديانة فردية انعزالية سلبية، لا تملك الحياة أن تنمو في ظلها النمو الدائم الفعال. ولقد أدت المسيحية دورها المحدود في حياة البشرية، ثم عجزت عن مسايرة الحياة العملية في الأجيال المتلاحقة، لأنها جاءت لفترة زمنية محدودة بين اليهودية والإسلام، فلما استمسكت بها أوروبا لظروف تاريخية معينة، وعجزت عن مسايرة الحياة المتطورة، انعزلت في المعبد، وفي الوجدانات الفردية، ولم تسيطر على الحياة الدافقة، لأنها لا تملك قوة الاستمرار والتطور والنماء.

والمسيحية لا تستطيع -بغير تمحل- أن تجاري النظم الاجتماعية والاقتصادية الدائمة التطور، لأنه ليس في صميمها أية فكرة عن الحياة الواقعية العملية[1].

ولقد تمردت العقلية العلمية بالأمس على المسيحية لوقوفها في وجه التفكير العلمي، والاكتشاف العلمي، وهو الأمر الذي انتهى بفصل الدولة في الغرب عن الدين، وهو ما عرف باسم «العلمانية». واليوم تتمرد العقلية اللاهوتية نفسها على العقيدة الرسمية المسيحية الموروثة، عقيدة «تألية المسيح» فقد أصدر ستة من كبار القساوسة عندهم كتابا أنكروا فيه ألوهية المسيح، وأثبتوا فيه أنه ليس إلا إنسانا مرسلا من الله تعالى، وهو عين ما قرره الإسلام منذ أربعة عشر قرنا.

---

(١) من كتاب العدالة الاجتماعية في الإسلام للشهيد «سيد قطب».

لم يبق إلا أمة الإسلام، وعالم الإسلام.

الأمة الإسلامية هي صاحبة الدور التالي على مسرح التاريخ: هي صاحبة الرسالة المقبلة، رسالة إنقاذ البشرية من الغرق.

• الأمة الإسلامية وحدها المرجوّة للإنقاذ:

الأمة الإسلامية وحدها هي صاحبة الرسالة الربانية الإنسانية العالمية العامة الخالدة -رسالة الإسلام الذي يقدم للنفس عقيدة تلائم الفطرة، ويقدم للمجتمع نظاما يلائم تطورات الحياة، ويقدم للإنسانية «أمة وسطا» تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتُنهي عن المنكر.

العالم الإسلامي يستطيع أن يجعل من نفسه الكتلة الثالثة التي تحفظ التوازن، وتقيم ميزان العدل والسلام، الكتلة التي تربطها العقيدة والتاريخ والمصالح والآلام والآمال، الكتلة التي لا تساير إحدى الكتلتين وإنما تساير الحق والعدالة والحرية، وتحارب البغي والاستعباد والعدوان حيثما كان، ومن أي مصدر كان، إنها ليست شيوعية ولا رأسمالية. ليست شرقية ولا غربية، ولكنها قرآنية محمدية ﴿**يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ**﴾ [النور: ٣٥].

والعالم الإسلامي غني بمصادر الإلهام من كتاب ربه وسيرة نبيه، وتاريخ أبطاله.. غني بثروته المادية، ورقعته الفسيحة، وموقعه الخطير في آسيا وأفريقيا.. غني بشعوبه المؤمنة الطيبة النقية التي تتجه إلى القبلة كل يوم خمس مرات، وتصوم وتقوم لله تعالى شهرًا كل عام؛ إيمانًا واحتسابًا. وتلتقي كل عام -في الأرض المقدسة- على كلمة

الله.. وقد استقل أكثر شعوبه، والباقي في طريقه إلى التحرر الكامل من آثار الاستعمار والاستعباد.

ولكن عالم الإسلام يحتاج إلى وحدة الكلمة، وإلى قيادة مؤمنة، وإلى تضحيات غالية...

ترى من يقود الركب، ويحقق الوحدة، ويشعل جذوة التضحية والجهاد؟

• رسالة العالم العربي ودوره في أمة الإسلام:

وإذا كان العالم الإنساني يرنو ببصره إلى زعامة العالم الإسلامي، وإلى الأمة الإسلامية فإن العالم الإسلامي يرنو ببصره إلى زعامة العالم العربي، وليس هذا رأي العرب في أنفسهم فحسب، ولكنه رأي المسلمين فيهم.

واستمع إلى رأي داعية من أكبر دعاة الإسلام في الهند بل فى العالم. يقول العلامة السيد أبو الحسن الندوي: «إن العالم العربي له أهمية كبيرة في خريطة العالم السياسية، وذلك لأنه وطن أمم لعبت أكبر دور في التاريخ الإنساني، ولأنه يحتضن منابع الثروة والقوة الكبرى: الذهب الأسود الذي هو دم الجسم الصناعى والحربي اليوم، ولأنه قلب العالم الإسلامي النابض، يتجه إليه روحيا ودينيا، ويدين بحبه وولائه، ولأنه عسى -لا قدر الله- أن يكون ميدان الحرب الثالثة، ولأن فيه الأيدي العاملة، والعقول المفكرة، والأجسام المقاتلة،

والأسواق التجارية والأراضي الزراعية، ولأن فيه مصر ذات النيل السعيد، بنتاجها ومحصولها وخصبها وثروتها ورقيها ومدنيتها، وفيه سوريا وفلسطين وجاراتها، باعتدال مناخها وجمال إقليمها، وأهميتها الاستراتيجية، وبلاد الرافدين بشكيمة أهلها، ومنابع البترول فيها، والجزيرة العربية، بمركزها الروحي وسلطانها الديني، واجتماع الحج السنوي الذي لا مثيل له في العالم، وآبار البترول الغزيرة، كل ذلك قد جعل العالم العربي محط أنظار الغربيين وملتقى مطامعهم، ميدان تنافس لقيادتهم، وكان رد فعله أن نشأ في العالم العربي شعور عميق بالقومية العربية، وكثر التغني «بالوطن العربي، والمجد العربي».

ولكن المسلم ينظر إلى العالم العربي بغير العين التي ينظر بها الأوروبي، وبغير العين التي ينظر بها الوطن العربي، إنه ينظر إليه كمهد الإسلام ومشرق نوره، ومعقل الإنسانية، وموضع القيادة العالمية، ويعتقد أن سيدنا محمدا العربي هو روح العالم العربي وأساسه، وعنوان مجده، وأن العالم العربي - بما فيه من موارد الثروة والقوة، وبما فيه من خيرات وحسنات - جسم بلا روح، وخط بلا وضوح، إذا انفصل -لا سمح الله- عن سيدنا رسول الله ﷺ وقطع صلته بتعاليمه ودينه، وأن سيدنا رسول الله (ﷺ) هو الذي أبرز العالم العربي للوجود، فقد كان هذا العالم وحدات مفككة، وقبائل متناحرة، وشعوبا مستعبدة، ومواهب ضائعة، وبلادا تتسكع في الجهل والضلالات، فكان العرب لا يحلمون بمناجزة الدول الرومية والفارسية، ولا يخطر ذلك منهم على بال، ولا يصدقون بذلك إذا قيل

لهم في حال من الأحـوال، وكانت سوريـا التي تكون جزءا مهـما من العالم العـربي مسـتعمـرة رومية تعـاني الملكية المطلقـة، والحكم الجائر المستبـد، لا تعرف معنى الحرية والـعدل، وكان العراق مطيـة لشهوات الدولة الفارسية، مثقلة بالضـرائب المجحفة والإتاوات الفادحة. وكانت مصر قد اتخذها الرومان ناقة حلوبا ركوبا، يجزون صوفها، ويظلمونها في علفها، ثم إنهـا تعاني الاضطهاد الديني، مع الاستبـداد السياسي، فما لبث هذا العالم المتـفكك المنحل، المظلوم والمضطهد، أن هبت عليه نفحة مـن نفحات الإسلام الذي جـاء به محمد ﷺ فأحـياه بإذن الله، وجـعل له نورا يمشي به في الناس، وعلمـه الكتـاب والحكمة وزكـاه، فكان هذا العالم بعـد البعثة المحـمدية، سفيـر الإسلام، ورسول الأمن والسـلام، ورائد العلم والحكمة، ومـشعل الثـقافـة والحضـارة، فلولا مـحمـد ﷺ ولولا رسالتـه ولولا ملتـه، ما كـانت سورية، ولا كـان العراق، ولا كانت مصر ولا كان العـالم العربي، بل ولا كانت حضارة الدنيا كـما هي الآن - حضارة عـقلا وديانة وخلقا، فمن اسـتغنى عن دين الإسلام من شعـوب العالم العربي وحكوماته، وولـى وجهه شطر الغرب أو أيام العـرب الأولى، واستلهم قوانين حـياته أو سياسـته من شرائع الغرب ودساتيره، ولـم يرض رسول الله ﷺ قائدا ورائدا وإماما وقدوة، فليرد على محمد بن عبـد الله ﷺ نعمته، ويرجع إلى جاهليته الأولى: حيث الحكم الروماني والإيراني، وحيث الاستعباد والاستبداد، وحيـث الظلم والاضطهاد، وحـيث الجهل والضـلالة، وحيث الغـفلة والبطالة، وحيث العزلة عن العالم والخمـود والجمود، فإن هذا التاريخ

المجيد، وهذه الحضارة الزاهية، وهذا الأدب الزاخر، وهذه الدول العربية، ليست إلا حسنة من حسنات محمد عليه الصلاة والسلام.

فالإسلام هو قومية العالم العربي، ومحمد ﷺ هو روح العالم العربي وإمامه وقائده، والإيمان هو قوة العالم العربي التي حارب بها العالم البشري كله فانتصر عليه، وهو قوته وسلاحه اليوم كما كان بالأمس، به يقهر أعداءه، ويحفظ كيانه ويؤدي رسالته»[1].

أثبتنا هذا النقل الطويل ليعلم دعاة القومية المادية العلمانية أن العرب بغير إسلام جندي بلا سلاح، وطائر بلا جناح، وأن القومية العربية التي قال بعض زعمائهم: إنها تقلق الغرب وتخيفه - ليست هي القومية الجافة الخالية من الروح، المعزولة عن الدين، فإنما يخشى العرب، ويحسب حسابهم لأَجْل رسالتهم التي صنعتهم من قبل، ويرجى أن تصنعهم من بعد.

التقى أحد الزعماء العرب بأحد القواد الإنجليز، فسأله: لماذا يعارض الإنجليز أماني العرب في الحرية والاستقلال؟ فقال القائد الإنجليزى بصراحة: «إنكم أيها العرب لستم جنسا عاديا من الناس، ولكنكم أصحاب رسالة تستطيعون بها أن تغيروا وجه العالم»!

وما عسى أن تكون هذه الرسالة إلا رسالة الإسلام؟!

• دور مصر في رسالة الإنقاذ:

العالم الإنساني يرنو إلى العالم الإسلامي. والعالم الإسلامي يرنو

---

(١) من كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»؟

إلى العالم العربي، والعالم العربي يرنو إلى مصر: وهذا ليس رأي المصريين في أنفسهم ولكنه رأي العرب والمسلمين فيهم.

هذا رئيس جمعية العلماء بالجزائر العالم الكبير، الأديب المجاهد المصلح المجاهد الشيخ محمد البشيري الإبراهيمي يقول في مقالة له ينادي فيها مصر: أنت اليوم مثابة العروبة، في ثراك حيّ بيانها، وبسقت أفنانها، وفي رياضك تفتحت أزهارها، وغردت بلابلها، ففي ذمة كل عربي حر الدم لك دين واجب الوفاء، وهذا أجل الوفاء.

وأنت اليوم قبلة المسلمين: يولون وجوههم إليك كلما حزبهم أمر، أو حلت بهم معضلة وينفرون إلى معاهدك يمتارون العلم منها، وإلى كتبك يصححون الفكر والرأي عنها، وإلى علمائك يتلقون الفتيا الفاصلة في الدين والدنيا عنهم، فلك - بذلك - على كل مسلم حق، وهذا أوان الحاجة إليها.

وأنت اليوم مأرز الإسلام، فكلما سِيم الهوان في قُطْر، أو رماه زنديق بنقيصة، فزع إليك، واستجارك، يتلمس الغوث، ويستمد الدفاع، فلك على المسلمين في المشارق والمغارب فضل لدينهم، وعليهم أن يطيروا خفافا وثقالا لنصرتك، ثم لا منة لهم عليك ولا جميل.

وكيف بك - مع هذا - لو كنت مظهرا للإسلام الصحيح، ولمُثُله العليا في العقائد والأعمال والأحكام، إذن لكنت قدوة في إحياء سننه التي أماتتها البدع، وفي إقامة أعلامه التي طمستها الجهالات، وفي بعث آدابه التي غطت عليها سخافات الغرب، وفي نشر هدايته التي طوتها الضلالات، إذن لحييت وأحييت.

ومن الغريب أنكِ قادرة على تغيير ما بكِ من هذه الأدران؛ ثم لم تغسلي، وأنك قادرة على إعادة الإسلام إلى رسومه الأولى؛ ثم لم تفعلي. ويمينا مرة لو فعلت لما حَلَّ بكِ ما حل، ولو فعلت لقُدتِ المسلمين بزمام، ولكنت - بهم - للعالم كله إماما أي إمام!

ويقول السيد أبو الحسن الندوي من مقاله «اسمعي يا مصر»:

«كوني يا مصر رسول الإسلام إلى الغرب، واحملي إليه رسالة محمد ﷺ، تلك الرسالة التي حملها العرب إلى الأمة الفارسية والأمة الرومية، فأنقذتهما من مخالب الموت. وأفاضت عليهما ثوبا قشيبا من الحياة، ولونا جديدا من النشاط، وليس الغرب بأقل حاجة إلى هذه الرسالة - وهو في دور التفكك وتنازع الموت والحياة - من الأمة الرومية والفارسية إليها.

إن أوروبا قد شاخت ونضجت كالفاكهة التي أدركت وضعف الغصن عن حملها.

فاستعدي يا مصر الإسلامية لتحلي محلها في الزعامة العالمية، وقيادة الأمم، وما ذلك بعزيز ولا مستحيل، إذا تم استعدادك الروحي والخلقي والمادي.

وإذا كانت أوروبا قد احتفظت بالقيادة العالمية هذه المدة الطويلة، وليست عندها رسالة عامة للإنسانية، ولا دعوة مخلصة لأمم العالم، وعندها كل ما يضعف ثقة العالم بها، من وطنية وعنصرية، وتقديس

للنسل الآدمي، وإدلال باللون الأبيض، ونزعة تجارية واستعمارية، فكيف لا يرضى العالم بقيادتك وعندك الرسالة التي تضمن سعادة العالم كله، والدين الذي لا يفرق بين الأوطان والعناصر والألوان»؟

ذلك هو رأي العرب، وهذا هو أمل المسلمين في مصر، بموقعها الهام بين قارات الدنيا وبنيلها العظيم، وأرضها الخصبة، ومساحتها الرحبة، وقناتها التي تعد شريان التجارة للعالم.. مصر بتاريخها العريق، وحاضرها المتوثب، ومستقبلها الزاهر المنشود.. مصر بشعبها الأصيل الذي تراه في السلم أنعم من الحرير، وفي البأس أشد صلابة من الحديد.. مصر بأزهرها العتيد ونهضتها العلمية والأدبية، وثقافتها الموروثة والمكتسبة، وبمركزها وسلطانها، ومنزلتها عند أبناء العرب خاصة والمسلمين عامة.

مصر - بقدراتها المادية والمعنوية - تستطيع أن تقود رَكْبَ تجميع العرب، وتوحيد كلمتهم، ثم تمد رواقها إلى العالم الإسلامى كله. والشعوب معها، يوم تفعل ذلك باسم الإسلام، وتحت راية محمد عليه الصلاة والسلام.

تستطيع مصر أن تتزعم الكتلة الثالثة التي يحتاج إليها العالم لأمنه وسلامه واستقراره. الكتلة الإسلامية التي تمتد من إندونيسيا إلى الرباط، هي الكتلة التي تحفظ التوازن، وتنصر الحق، وتنشر الخير، وتقيم الموازين القسط بين الناس، كل الناس.

فليت شعري هل تؤدي مصر الأمانة، وتحقق الأمل، وتحمل رسالة الإسلام إلى العالمين؟

• رسالة الأزهر في إنقاذ البشرية:

وإذا كانت آمال العرب والمسلمين تتجه إلى مصر، فإن مصر بدورها تتجه إلى الأزهر، وهو أكبر عامل هيأ لمصر بين شعوب الإسلام هذه المكانة، وبوأها هذه الزعامة.

الأزهر الذي أدى في الماضي دوره الروحي والعلمي والأدبي والاجتماعي والقومي حتى احتلت مصر في الشرق الإسلامي هذا المكان المرموق -عليه أن يقوم بدوره الجديد في الحاضر، ليأخذ مقعده في الصفوف الأولى كداعية إلى الإسلام الحقيقي، وموقظ لشعب مصر المؤمن، وموجه لشعوب العالم العربي والإسلامي، ومرب لدعاة ومصلحين ينبثون في أرجاء هذا العالم كالأشعة التي تحمل النور والحرارة والحياة.

ويحسن بنا إذا أردنا أن نتصور دور الأزهر اليوم، أن نلقي الضوء على دوره بالأمس، وما قدمه للأمة عبر تاريخه الحافل - وهو تاريخ يجر وراءه ألف سنة أو تزيد، في الحفاظ على العلم واللغة والدين، تعرضت فيها الثقافة الإسلامية لنكبتين ماحقتين مدمرتين: نكبة بغداد في الشرق على يد (التتار) الذين لم يكتفوا بقتل الآدميين وتذبيحهم، حتى سالت الميازيب دما في الشوارع، ولكنهم أرادوا تخريب العمران، وطمس معالم الحضارة والعلم الإسلامي، فرموا بالمكتبة الإسلامية الزاخرة إلى نهر دجلة، فجرى ماء دجلة أسود اللون، لكثرة ما خالطه من مداد الكتب.

ونكبة الأندلس بالغرب، على يـد «الأسبان» المتعصبـين الذين قضوا على تلك الحضارة الإسلامية الزاهرة، التي ظلت منارة هادية في أوروبا ثمانية قرون، وتمزقت أشلاء المكتبة الإسلامية ما بين أسباني ثمل بخمرة النصر، ومـسلم يلوذ بالفرار، هربا بـنفسه ودينه من براثن المتـعصـبين الصليبيين.

في هذه العصور التي أصيب فيها المسلمون بما أصيبوا.. ظل الأزهر سماء لا تطاولها سماء، تلمع فيها كواكب الهداية والنور، وظل المهجر والمأوى لطلاب العلم، وللعلماء المشـردين والمضطهدين في كل مكان، وصار أكـبر همـه أن يركب الصعب والذلول، ويمـتطي البحـر والبر، ويرحل إلى المشرق والمغرب، ليـحفظ البقية الباقـية من تراث الإسلام، ويجمع مـا تفرق ويضم ما تناثر، ويدون وينشر مـا يوشك أن يضيع، ويصنف ويؤلف، عوضًا عما ضاع، وتكميلا لما بقي.

وكانت السـوق الرئيسـية للعلم والأدب والفلسـفة في مصـر حيث الأزهر، فمنه وإليه تقوم حركة الاسـتيراد والتصدير العلمي، إليه يحج العلماء منضمـين إلى أسرته، ناهلين من حياضه، ومنه ينتـشر العلماء معلمين وموجهين، أو باحثين ومستزيدين.

وبالجـملة فـتاريخ الأزهر الـعلمي والأدبي في تلك القـرون هو من تاريخ مصر وهذه المنطقة كلهـا بمنزلة الرأس من الجسد أو القلب الخافق بالمشاعر والوجدان.

• شهادة التاريخ:

على أن الأزهر كـــان له بجـوار دوره الـعلمى - دور توجـــيهي واجتماعي وسياسي، شهـدت له به صحائف التاريخ، فقد كان الأزهر مُعَلِّم الشعب ومرجعـه في النوازل، وحامي حمى الدين، وحارس لغة القرآن، وناشر العلم والثقافة، وحامل لواء التربية والتوجيه.

كان من أبـنائه المعلمون والقـضاة، والمفـتون والوعـاظ، والمرشدون والأئمة والخطباء، والكتـاب والشعراء، والمؤلفون والباحـثون، والعلماء والرياضيون والطبيعيون، فكان كما قيل «كل الصيد في جوف الفرا».

كان الجامع الأزهر برلمان الأمة، وكان علماؤه نوابها الذين لا يبتغون جاها، ولا يتنـاولون أجرا.. كان قـوله الفصل، وحكمـه هو العدل، ورأيه هو المسـموع، وأمـره هو المطاع، يولي الملوك، ويعـزل الأمراء، ويضع التيـجان على رؤوس من شـاء، ويسقطهـا عمن أراد، وهو في الملك زاهد، وعن الإمـارة راغب، وحسـبه أنه اختـار لنفسـه أن يكون الموجـه والمراقب والمشيـر، على حـد قول أبي الأسـود الدؤلي: الملوك حكام على الناس، والعلمـاء حكام على الملوك، وهو ما نظمه الشـاعر فقال:

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر يحكم العلماء!

وكان الأزهر مـوقد الثورات الشـعبية ومـغذيها، وقـائدها ضد كل اسـتعـمار من الخـارج، أو ظلم من الداخل.. ولا زال التـاريخ يسطر

بحروف من نور مـوقف علماء الأزهر من الحملة الفرنسـية، ومن ظلم بعض الولاة العثمانيين، ومن طغيان بعض المماليك.

• الأزهر في مقاومة الاحتلال:

كان نابليون يحسب أن مصر ستفتح له ذراعيها بمجرد وصول حملته إليها، ولكنه فوجيء من بني مصر بثـورات عارمة، ومقاومة باسلة يقوم بها شعب مصر الأعزل؛ أمام القوات الفرنسية المسلحة بالحديد والنار.

وإني لأحس بالنشوة والفخر كلما قرأت تاريخ تلك الحقبة، ووجدت الأزهر هو العقل المدبر واليد المحركة لتلك الحركات والثورات.

استمع معي إلى هذه الفقـرة عن ثورة ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ أي بعد ثلاثة أشهر من الاحـتلال الفرنسي: «وشكلت لجنة قيـادة الثورة وجعلت مقـرها الأزهر، وانتخـب الشيخ السـادات رئيسًا لهـا، ونظمت كـتائب المتطوعـين - وزودوا بالأسلحـة.. وانبث العلمـاء وشيـوخ الأزهر بين الصناع والتجار ومختـلف الطوائف، يدعونهم إلى الثورة، وتسلل الدعاة إلى الريف يستنـهضون همم الفـلاحين لمناهضة المسـتعمـرين، ومؤازرة المكافـحين، فأقـبلت أفواج منهـم يحملون العـصي والفئـوس والرماح والبنادق، واعتلى المؤذنون شواهق المآذن ينادون نداءات مثيرة للخواطر..

وعَلَتْ صيحات السخط في كل مكان، وتجمع المواطنون في الجوامع يستمعون إلى العلماء وهم يخطبون ويحمسون أفراد الشعب على منازلة المحتلين وتحرير مصر، إلى أن اندلع لهيب الثورة واشتد أوارها.

وانبث الفقهاء في الشوارع ينادون: من كان موحدا - أي من أهل التوحيد - فليأت إلى الجامع الأزهر، لأن اليوم يوم المغازاة للكفار، وعلينا أن نزيل العار بأخذ الثأر. وخرج قرابة ثمانية آلاف مجاهد من باب الفتوح، وتدفقوا منه إلى المرتفعات للاستيلاء على المواقع التي تصب نيرانها..

واستشاط الفرنسيون غضبًا، فسلطوا قذائف مدافعهم على الأزهر موطن الثورة، وأخذت القنابل تترامى على الجامع وعلى الأحياء المجاورة، حتى تصدعت الجدران، وانهارت المنازل الملاصقة، ودُفِنَ الألوف من النساء والأطفال والشيوخ تحت الأنقاض، وجرى الدم في الشوارع من الفريقين، ودون فى إحصاء رسمي عن مقر القيادة بأن عدد القتلى بلغ زهاء أربعة آلاف من الأنفس في هذا اليوم. ولم يلبث الفرنسيون أن احتلوا الجامع الأزهر بخيولهم! وجاسوا خلال أروقته، وربطوا الخيول عند القبلة، وحطموا القناديل، ونهبوا المخطوطات والمصاحف!.

وعمدوا إلى الانتقام من شعب القاهرة، فقبضوا على زعماء الثورة من علماء الأزهر واعتقلوهم في القلعة، ثم أعدموهم دون محاكمة، وطرحت جثثهم في النيل..»[1].

وهذا امتداد طبيعي لما قام به سلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام، وشيخ الإسلام ابن تيمية من استنهاض للشعب وإيقاظٍ لوعيه، وإثارةٍ لحميته الدينية لمقاتلة الصليبيين والتتار.

---

(١) من كتاب «كفاح الشعب» لمحمد أمين حسونة... بتصرف. وانظر: «الأزهر في ألف عام» للدكتور أحمد محمد عوف.

• الأزهر في مقاومة الاستبداد:

ولم يكن الأزهر قائد الكفاح القومي ضد الاحتلال الأجنبي فقط. ولكنه كان قائد الكفاح الدستورى ضد الاستبداد الداخلي كذلك.

في سنة ١٧٩٥ قبل الحملة الفرنسية، اضطربت الأمور فى مصر، وكثرت شكاة الناس من طغيان المماليك. وعلى رأسهم مراد وإبراهيم، فنهض وفد من العلماء في مقدمتهم السيد عمر مكرم للدفاع عن الحريات العامة، ومناهضة الاستبداد، وألزموا الطاغيتين بشروط سجلت في وثيقة تعهدوا فيها بإقامة العدل، والتوبة عن العدوان، ويعدون بالقيام بالواجبات التي يفرضها عليهم الشرع والعرف، من صرف الأموال على مستحقيها، ورفع الضرائب المستحدثة، ويتكفلون بكف أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى الأموال، وأن يسيروا في الحكم سيرة حسنة.

هذه الوثيقة التي استخلصها العلماء من الحكام تعد - في نظر بعض الدارسين [١] - أقدم وثيقة لإعلان حقوق الإنسان، فقد سبقت في التاريخ إعلان حقوق الإنسان في أعقاب ثورة فرنسا سنة ١٧٩٨. سجل علماء الإسلام هذه الوثيقة في عصر عرف بالتأخر العلمي، والركود الأدبي، والانحطاط العام في حياة المسلمين.

كان العلماءُ ملاذَ الشعب كلما مسه أذى الرؤساء، أو أرهقه ظلم الولاة، وكان العلماء - عند حسن الظن بهم - المعبرين الحقيقيين عن

---

(١) انظر: كفاح الشعب -السابق.

آلام الشعب وآماله، والمطالبين بحقوقه وأهدافه فإذا لم تجد المطالبة والإقناع، ولم تغن المفاوضة والمحادثة السليمة، اتجه العلماء إلى الشعب يوقدون فيه الجذوة، ويشعلون الثورة، ويرمون لها بالوقود، من نصوص الدين القويم، وتوجيهاته العادلة، التي تأبى الظلم والطغيان، فيندفع الشعب - باسم الدين - ثائرًا غاضبًا، يهدر كالموج، ويزأر كالليث، ويدوي كالإعصار.. ولا عجب أن نرى المواطنين يتجمهرون ويحتشدون ويصيحون: «يالطيف يالطيف، يا رب يا متجلى اهلك طائفة العثمانلي» على نحو ما كنا نقول ونسمع في صغرنا كلما رأينا طائرة: «يا عزيز يا عزيز: كبة تأخذ الإنجليز».

ثار الشعب على الوالي العثماني خورشيد باشا، لكثرة مظالمه، ومظالم جنوده، واجتمع بدار المحكمة الشرعية العلماء والفقهاء ونقباء الصناع، وقاضي القضاة. وقرروا خلع خورشيد من الولاية وإسنادها إلى محمد علي.. الألباني الداهية الذي أظهر عطفه على الشعب.

وسار نواب الشعب يتقدمهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، والشيخ الشرقاوي، شيخ الأزهر، يتبعهم زهاء أربعين ألف مواطن -إلى منزل محمد علي بالأزبكية، وأبلغوه قرارات مؤتمرهم الخاصة بمنع فساد الجنود، وعدم فرض ضرائب إلا بموافقة العلماء والأعيان.

وقالوا له: شرع الله بيننا وبين هذا الحاكم الظالم.. لقد اجتمعنا اليوم لخلعه فإن أطاع نجا، وإن خالف عاملناه بما كسبت يداه.

فسألهم ومن تريدون بدله؟.

فأجابوه: قد اخترنـاك بدلاً منه، بشروط، منها: أن تسير في الحكم بالعدل وفق نصـوص الشريعة السـمحاء، وألا تبرم أمـرا إلا بمشورتنا، وإذا خالفت هذه الشروط عزلناك من الولاية.

فقبل هذه الشـروط، ثم نهض الزعيمان مكرم والشرقـاوى، وألبساه خلعـة الولاية، أما كـيف خُلِعَ خـورشـيد؛ فـأمر ينـبغي أن يسـجل بالإعجاب والإكبار.

في ١٦ مايو اجتمع العلماء والمشايخ وقاضي القضاة في دار المحكمة الشرعـية، وحرروا وثيقـة شرعية بعـزل خورشيد من الولاية، وبعـثوا بصورة منهـا إلى الباب العالـي بالآستانة. أمـا هذه الوثيقة فـقد تولى الشيخ محمد المهدي صياغتها واستهلها بقوله:

«إن للشعوب طِبْـقًا لما جرى به العرف قديمًـا، ولما تقضي به أحكام الشريعة الإسـلامية، الحق في أن يقيمـوا الولاة، ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وسـاروا بالظلم، لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة».

وأرسل خـورشيـد مندوبا عنه للاجـتمـاع بزعمـاء الشعب، وقـال المندوب للعلمـاء: كيف تعـزلون من ولاه السلطان عليكم والله تعـالى يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فـرد عليـه عمـر مكرم بقـوله: «أولوا الأمـر هم العلمـاء وحـملة الشريعة، والسلطان العادل، وصاحبك رجل ظالم.. وقد جرت العادة

من قديم الزمان: أن أهل البلد يعزلـون الولاة؛ حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور. . .»[1].

وبعد حصار وكفاح انتصر الشعب بقيادة العلماء. . وعَزِل خورشيد، ووَلَّى محمد علي الداهية الجبار.

وحينما انتفـضت مصر انتفاضة أخرى بقيادة أحـمد عرابي، الزعيم الريفى الذي تعلم أول أمـره في الأزهر، وكانت الثورة عـلى «توفيق»، واستصدر الخديو «فرمانا» سلطانيـا بعزل عرابي من منصبه بالجيش -لجأ عرابي إلى العلماء، فأصدروا فتوى جريئة قالوا فيها: «إن الخديو توفيق خـائن لدينه ووطنه، وقـد مَـرَقَ من الدين، كـمـا يَمْـرُقُ السـهم من الرمية»!!.

هذه مواقف جماعية للأزهر وعلمائه، وما أكثر ما نقرأ مواقف فردية خالدة، لبعض علمائه المؤمنين الشجعان:

فعندما أراد حسن باشا الجزائرلي المبعـوث العثماني بمصر أن يستبيح أموال المماليـك، ويقبض على نسائهم وأطفالهم، ويطرحـهم للبيع في السوق، علـى زعم أنهم أرقاء لبيـت المال وقف الشيخ السـادات يحتج احتجاجًا صارخًا، ويقول:

كيف يباع هؤلاء المماليك وقد ولدوا أحرارا؟!.

---

(١) الحقائق التاريخية من المصدر السابق.

• فترة الركود والتخلف:

هذا هو دور الأزهر التاريخي، وهو دور عميق الأثر، عظيم الخطر، هو دور علمي تربوي ديني وقومي، اجتماعي وسياسي.

وهو دور أحس به الشعب ولمسه وعايشه، وسجله التاريخ، واعترف به كل من كتب عن كفاح الشعب المصري في تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر والمسلمين.

«كان الأزهر -كما كتب مؤرخو هذه الفترة -موطن النهضة القومية، ومصدر الزعامة الشعبية، وموئل الحياة الدينية، ومنبع الحركة الثقافية في العالم الإسلامي. وقد برزت قوته في كل حالة احتكت فيها مصر بالأجنبى. وفضلاً عن هذا وذاك فقد غذى الأزهر النهضة العلمية في بداية نشوئها. وأمد الكنانة بطائفة من زعماء الإصلاح، الذين شيدوا صرح النهضة القومية، وكان طلابه نواة مدارس الطب والهندسة والألسن، وكان منهم شباب البعوث العلمية، الذين قامت على أكتافهم دعامة مصر الحديثة، بل إن الذين اضطلعوا بقسط وافر من ترجمة المؤلفات الطبية والهندسية والفنية، والذين أسهموا في بعث التراث العربي، وإخراج الموسوعات والكتب والمراجع التي تولت مطبعة بولاق نشرها، كانوا من رجال الأزهر»[1].

ولكن لماذا أُقصي الأزهر بعد ذلك عن نهضة مصر الحديثة، وعليه كان اعتمادها في أول الأمر؟

---

(١) من كتاب «كفاح الشعب» السابق ذكره.

لقد كان المفروض بعد ذلك أن يقود الأزهر النهضة، ويوجهها الوجهة الربانية، ويصبغها بصبغته العربية الإسلامية، بل كان عليه أن يتطور هو إلى جامعة شاملة تنبثق منها كل الكليات الجامعية النظرية والعلمية، كما تطورت جامعات أوروبا الدينية إلى جامعات عامة مثل أكسفورد وكمبردج والسوربون، وكما فعل «الجزويت» في فرنسا وهم أشد الفرق تعصبا للدين، فهم الذين غيروا نظام التعليم في أوروبا، فارتقى بسعيهم إلى الدرجة التي هو فيها.

كان هذا هو المنتظر والمتوقع ولكنه لم يتحقق، فقد ركدت ريح الأزهر، وضعفت دولته، وعزل عن منصة القيادة والتوجيه، وأنشئت المدارس والجامعات المدنية الحديثة. وأعطيت من الإمكانات ما جعلها تأخذ الزمام من الأزهر، فلماذا حدث ذلك؟.

ربما قيل: كان ذلك لجمود الأزهر على قديمه، وغفلته عن تطور الحياة من حوله.

وربما كان ذلك لأن اتجاه محمد علي، كان اتجاها مدنياً لا يهتم كثيراً بالدين، بل هو اتجاه عسكري هدفه الجيش، وإمداد الجيش وتقوية الجيش، ليكون أداته في إشباع طموحه، وتحقيق أطماعه، ومن جاء بعد محمد علي، كان منهم من أغلق المدارس والمصانع.. ومنهم من أراد أن يجعل مصر قطعة من أوروبا، ولم يكن وعيهم بالجذور والهوية الحضارية، والسند الروحي للنهضة كافية.

ولما جاء الاحتلال الإنجليزي، وجثم على صدر البلاد، كان همه أمرين:

إضعاف قوة مصر العسكرية. وذلك بقص أجنحة الجيش حتى لا يظهر «عرابي» جديد وهذه مهمة البعثة العسكرية البريطانية.

وإضعاف القوة المعنوية، وذلك بخنق صوت الإسلام حتى لا يدوي ويسمع، وحجب شعاعه حتى لا يضيء ويهدي: فكان لابد من «تجميد» الأزهر وإبعاده عن المشاركة والتأثير في النهضة التعليمية خاصة، وعن النهضة الحضارية عامة، وتلك هي مهمة السياسة التعليمية التي يرسمها القس الإنجليزي «دنلوب» مستشار المعارف المصرية حين ذاك. بالإضافة إلى المدارس التبشيرية والأجنبية في الداخل، وإيفاد البعثات إلى أوروبا في الخارج.

وقد كان الاستعمار الإنجليزي وأعوانه واعين لما يفعلونه، فقد وجدوا الأزهر «ناشزا» مستعصيًا على أفكارهم وخططهم، ولم يكن -كما أرادوا- سلس القياد، سهل الانقياد، فوجدوا أفضل وسيلة للخلاص منه، أن يُتْرَكَ وحده بعيدًا عن تيار الحياة المعاصرة، حتى ينكمش أو يموت داخل جدرانه، وساعد على ذلك جمود بعض شيوخه الذين أغلقوا على أنفسهم وعلى غيرهم باب الاجتهاد، ونادوا أن يبقى كل قديم على قدمه، ناسين أن الأرض تدور، وأن الفلك يتحرك، وأن الدنيا تتغير من حولهم. وظل الأزهر فترة من الزمن يدور حول نفسه، لا يأتي بجديد، ولا يرقى بقديم، شعاره: ما ترك الأول للآخر شيئًا!.

أيا ما كان السبب.. فقد وقف الأزهر والقافلة تسير، وجمد والعالم يتحرك، ونام ملء عينيه، والشمس تغمر الكون بالحرارة والضياء.

وقد كان اعتزال الأزهر، أو عزله عن القيادة والتأثير، فرصة للاستعمار الثقافي ليعمل عمله، في الفكر والتشريع والحياة الاجتماعية كلها. وكان من أثر ذلك أن ضعف الوازع الديني في أنفس كثير من الناس، ولبس كثير من المتدينين الدين كما يلبس الفرو مقلوبًا! وتمكن الغزو الفكري والروحي والاجتماعي الذي قام به التبشير والاستعمار أن يكسب انتصارات جزئية في ميادين شتى على حساب الإسلام وعقائده وتقاليده ونظمه وآدابه. لا بالدبابة والمدفع، ولا بالطائرة والأسطول، ولكن بما هو أعمق جرحا، وأبعد غورا «بالأستاذ الذي يفسد الفكر، وبالعلم الذي يزرع الشك، وبالكتاب الذي يمرض اليقين، وبالصحيفة التي تنشر الرذيلة، وبالقلم الذي يزين الفاحشة، وبالبغي التي تخرب البيت، وبالحشيش الذي يهدم الصحة، وبالممثلة التي تمثل الفجور، وبالراقصة التي تغرى بالتخنث، وبالهازل التي تقتل الجد والشهامة. وبالخمرة التي تذهب بالدين والبدن والعقل والمال، وبالشهوات التي تفسد الرجولة، وبالكماليات التي تثقل الحياة، وبالعادات التي تناقض فطرة الله، وبالمعاني الكافرة التي تطرد المعاني المؤمنة من القلوب»![1].

أما والله لقد كانت نكبة كبرى أن يركد الأزهر ويعتزل أو يعزل عن الحياة العامة، ويتخلف عن قيادة الأمة، فيتولى الزمامَ أناسٌ أسماؤهم

---

(١) من مقالة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في مجلة المسلمون: السنة الأولى بعنوان: يا مصر.

إسلاميـة، وعقولهم وقلوبهم أوروبية! جعلوا الكعـبة وراءهم واتخذوا الغرب قبلتـهم. وتولوا المدنية الأوروبية، وعادوا الحضارة الإسـلامية. فكانت النتيـجة أن صار الدين في واد والدولة في واد! ينص الدسـتور على أن دين الدولة الإسلام ويقول الواقـع المرير: إن جل مظاهر الحياة بعيدة عن الإسلام، وكل ذلك نشأ من تخلف الأزهر عن ركب الحياة.

غيـر أن الإنصاف يقتضـينا أن نقول: إن الأزهر لم يعدم من شـبابه ورجاله الدعاة والمصلحـين، وأن الأزهر في الفترة التي غفا فـيها وألقى السلاح، إن كان قد فرط في الإسلام كدولة فإنه لم يفرط فيه كدين.. فظل الأزهريون يخطبـون ويدرسـون، ويعلمون الـشعب في كل قـرية ومدينة: أصول العقائد، وأحكـام العبادات، وآداب المعاملات، ومكارم الأخلاق.

• رسالة الأزهر اليوم:

على أن الأزهر لم يستمر على ركوده ورقـوده، فقد رزقه الله برجال مصلحين من داخله، حاولوا أن يوقظوه من غفـوته، وأن يفتحوا عينيه على ما حوله، وأن يخـرجوه من قيود الماضي إلى باحـة الحاضر، وأن يفكوا عنه أغلال التقليد التي كبل بها نفـسه وقد خلقه الله حراً، وضيّق بها الدين وقد شرعه الله رحبًا.

وقال الأستاذ الإمـام محمد عبده: يستـحيل بقاء الأزهر على حاله، فإما أن يعمر، وإما أن يتم خرابه!.

وجاء تلميذه الشيخ المراغي، فبذل جهده - خلال توليه لمشيخة الأزهر مرتين- في إصلاح أوضاع الأزهر وتجديده، حتى يؤدي رسالته على مستوى الإسلام الذي يمثله، ومستوى العصر الذى يعيشه. ولم يكن الطريق أمامه سهلاً، ولكنه لم يستسلم ولم يعجز، واستطاع أن يحقق الكثير.

وجاء بعده شيوخ كبار، لكل منهم قدره ومنزلته وجهاده في سبيل الإصلاح، من أمثال مصطفى عبد الرازق، ومحمد الخضر حسين، وعبد المجيد سليم، ومحمود شلتوت، وعبد الحليم محمود، ممن جاهدوا لبعث الأزهر، وإعلاء كلمته، لأنها كلمة الإسلام.

وصحا الأزهر من سكرته، ونهض من عثرته، وأصبح له كليات كثيرة، ومعاهد أكثر.. واجتهد أن يخوض من جديد معترك الحياة، ويسهم مع الجامعات والمؤسسات الأخرى في ترشيد النهضة، وقيادة الأمة، وتوجيه المسلمين، وهداية غير المسلمين.

وهنا تشير الأصابع إلى الأزهر، ويتجه المصريون والعرب والمسلمون في كل مكان إليه سائلين سؤال الحريص عليه، وليس سؤال المحرج له، أو المتربص به.

والسؤال هو: ماذا عسى أن يكون دور الأزهر اليوم؟ وقد تغيرت الأوضاع في مجتمعاتنا العربية والإسلامية؟ فقد أسقطت الخلافة وتمزق المسلمون إلى دول بل دويلات، وعطلت الشريعة في معظم جوانب

الحيـاة، وحلت محلـها القوانيـن الوضعيـة، وأخر الفكـر الإسلامي، والتربية الإسلامية، والتقاليـد الإسلامية، لتفسح المجال للفكر الغربي، والتربية الغربية، والتقاليد الغربية.

ما عسى أن يكـون دور الأزهر، وقـد ظهرت فى كل بلاد الإسلام -أو في جلها - حـركات شعـبية إسلامـية تجديدية، تعـمل على إعادة الوعي إلى الإنسان المسلم، حـتى يثق بنفسه، ويعـتز بدينه، ويأمل في غده. وكان من أثر هذه الحـركات وجهاد رجالها، على مـر العقود من السنين: إيجاد رأي عـام يطالب بالعودة إلى الإسلام مـصدرًا للتوجـيه والتشريع والتكتل، وتكوين جيل يعتز بالإسلام ويؤمن به، ويعمل على تحكيم شريعته في الأرض، وتمكينه في دنيا الناس.

ثـم ما عـسى أن يكـون دوره، والـقـوى المعادية للإسلام صـاحـية لا تنام، عاملة لا تكسل، مخططة لا ترتجل، من يهودية توسعية، ومن صليبية استـعمارية، ومن شيوعية إلحادية، ومن وثنيـة عدوانية تختلف فيما بينها، وتتـفق علينا وحدنا. وصدق الله إذا يقول: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ [الأنفال: ٧٣].

ما عـسى أن يكون دور الأزهر اليوم.. وقـد كبر حـجمـه، واتسعت قاعدته؟ وما عسى أن تكون رسالته لمصر وللعرب وللمسلمين وللعالم؟.

ماذا عسـى أن تكون رسالة الأزهر اليوم ورسالة أبنائه؟ وقـد أصبح يخرج كل عام آلافًا مـن الطلاب، وأصبحت جامعته تـضم عددًا وفيرًا

من الكليات للبنين والبنات، دينية وإنسانية وعلمية، وأصبحت معاهده الابتدائية والإعدادية والثانوية منتشرة في أنحاء شتى من جمهورية مصر العربية؟.

• الأزهر مصنع للدعاة إلى الله:

إن الذي يتبادر إلى الذهن أن الأزهر ليس أكثر من معهد أو جامعة للعلم الديني، مهمتها تخريج فئة من المتخصصين في علوم الدين واللغة العربية أو في الدراسات الإنسانية والاجتماعية والمجالات العلمية لهم ثقافة دينية.

وهذا صحيح، وهو جزء أساسي من مهمة الأزهر. ولكن هذا جسم المهمة المنوطة بالأزهر وليس روحها، فقد يتخرج آلاف الناس من الأزهر، ويحملون شهادة العالمية، ولكنهم لم يعوا حقيقة رسالته ورسالتهم، ولو وعوها بعقولهم لم تنفعل بها قلوبهم، ولو انفعلت بها قلوبهم لم تتجه إليها إرادتهم، لأنهم يعيشون -أو يتعيشون- بها، ولكنهم لا يعيشون فيها، ولا يعيشون لها!.

حدثوا أن شيخا من حكماء الشيوخ المربين، أراد أن يعرف مدى استعداد تلاميذه، ومقدار فهمهم لرسالتهم، فاقترح على أربعة منهم أن يملأ كل واحد حجرة الدراسة بما يمليه عليه تفكيره وشعوره.

فذهب الأول فوجد في طريقه حطبًا كثيرًا، فحمله وجاء به إلى الحجرة وملأها به، فقال له أستاذه: أنت رجل ضعيف الهمة تميل إلى العيش من أقرب طريق.

وذهب الثاني فجاء بمجموعة من الكتب والمجلدات فكدسها في الحجرة، فقال له الحكيم: أنت رجل نظري تحسب أن في الكتب كل شيء وتنسى كتاب الحياة الأكبر.

وذهب الثالث فجاء بباقة من الأزهار والورود، فوضعها في الحجرة، فقال له الأستاذ: أنت رجل طيب القلب، تظن الحيا نعميًا لا بؤس فيه، ولا تذكر أن بجانب الورود أشواكًا مدمية.

وذهب الرابع فجاء بشمعة وأوقدها في وسط الحجرة، فنظر إليه أستاذه الحكيم نظرة المعجب وقال له: لله درك.. أنت الذي فهمت سر حياتك. إن مهمتنا أن نضيء للناس الطريق!.

على ضوء هذا المثل، ينبغي أن نفهم رسالة الأزهر الأولى، ورسالة أبنائه وعلمائه.

إن مهمتنا أن نضيء للناس الطريق. أجل، والله، إن مهمتنا أن نذوب في سبيل الإسلام ونحترق من أجل رسالة القرآن.. أن نكون شموعًا تضيء للناس الطريق إلى الجنة، وتهدي الحائرين إلى الله.

فما أضل الناس الذين يفهمون أن الأزهر مجرد جامعة لتخريج طائفة من الموظفين لتشغل طائفة من الوظائف! وأضل من هؤلاء الأزهرى الذي يفهم الأزهر ذلك الفهم الشارد، ويظن بنفسه ذلك الظن الأثيم.

إن علماء الأزهر هم ورثة النبوة، وحملة الرسالة، هم هداة الخلق، ودعاة الحق، ورسل الخير، ومفاتيح الهدى، ومصابيح الدجى...

إن وظيفتهم هي أشرف وظيفة فى الوجود، لأنها وظيفة النبيين والمرسلين. هي الدعوة إلى الله على بصيرة، وسوق الناس إلى جنة الخلد، والأخذ بحجزهم أن يتهافتوا في النار ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت: ٣٣].

إن رسالة الأزهر أن يكون مصنعًا كبيرًا يصوغ الدعاة إلى الله على بصيرة، ويصنع للإسلام رجالاً يفقهون كتابه، وسنة رسوله، وسيرة رجاله، وتاريخ أمته، ويتفاعلون مع الحياة التي يعيشون فيها، وينطلقون برسالة الإسلام مبشرين ومنذرين، موجهين ومعلمين، للعامة والخاصة، في القرى والمدن، في المدرسة والمسجد، في الداخل والخارج، بالقلم واللسان.

قد يدرسون اللغة العربية ليفهموا بها مصادر الإسلام، وقد يدرسون العلوم الحديثة لينتفعوا بها في خدمة الإسلام، وقد يكونون مدرسين وقضاة، وإداريين وعسكريين وأطباء ومهندسين، وزراعيين وتجاريين، ولكنهم لا ينسون مهمتهم الأصلية: أنهم حملة رسالة الإسلام ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ**﴾ [الأحزاب: ٣٩] ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت: ٣٣].

• الأزهر حامل رسالة الإصلاح والتوجيه للمجتمع:

بيد أن الأزهر ليس معهدًا علميًا يخرج علماء ودعاة للإسلام، ثم

ينتهي دوره بعد هذا.. كلا. إن الأزهر جامعة، وجامع، وجمعية: جامعة للعلم والتثقيف، وجامع للعبادة والتربية، وجمعية للدعوة والإصلاح، فلا ينبغي أن تفقد «الجامعة الأزهرية» روح «الجامع الأزهر» ولا طبيعة «الجمعية الشعبية».

أجل، على الأزهر -بحكم مسئوليته الدينية والتاريخية والشعبية والرسمية - أن يؤدي حق الله بتبليغ دعوته، وإقامة حجته، ونشر دينه وتعليم أحكامه، وأن يقف ديدبانا يقظًا، يحرس الإيمان في القلوب، والعبادات في المساجد، والتقاليد الصالحة في المجتمع. والتشريعات العادلة في الحكم، ناصحًا لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم. فإذا رأى معروفًا ضيع أو كاد، أمر به وعمل على إقامته، وإذا رأى منكرا فشا، أو فاحشة شاعت، أو ظلمًا ساد، عمل على تغييره بنصيحة السلطان، ، وقوة الشعب وتأثير الإيمان.

وليس هذا من الأزهر خروجًا على اختصاصه، وتدخلا في شئون دنيوية سياسية ليست في حدود عمله، كما يحسب الجاهلون بالإسلام، ونظامه وتاريخه، فالإسلام غير المسيحية، والقرآن غير الإنجيل، والأزهر غير الكنيسة، وعلماء الإسلام غير رجال الكهنوت.

فليس في نصوص الإسلام من كتاب أو سنة نص يقول: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ولكن الإسلام ينادي أن قيصر، وما لقيصر، وأتباع قيصر: لله الذى له ما فى السموات وما في الأرض، ومن في السموات ومن الأرض.

وفي آيات الكتاب: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وفي أحاديث الرسول ﷺ: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده**».

ولم يكن الأزهر في تاريخه الطويل المجيد ديرًا لرهبان، ولم يكن علماؤه ولا علماء الإسلام فى أى بلد رجال كهنوت أو عبادًا في صوامع، بل كانوا يعيشون في معمعة الحياة، في اللهب وفي الصقيع مع الشعب وبين ظهرانية، يوجهون المواطنين وينصحون الحكام. بل يحملون السلاح ويخوضون المعارك ضد الغزو أو الطغيان في بعض الأحيان. ونحن نقرأ ثورة العلماء المسلحة على الحجاج بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث في شرق الدول الإسلامية، وثورة أخرى بقيادة القاضي يحيى بن يحيى في غربها بالأندلس.

• واجب الدعوة والتوجيه:

على أن الواجب الأساسي للأزهر نحو المجتمع هو واجب الدعوة والتوجيه والهداية التى هي رسالة الأنبياء والرسل عليهم السلام. وهذا واجب الأزهر بصفته هيئة عامة، وواجب علمائه بصفتهم الفردية.

إن علم الدين لا يتعلم ليدفن في الصدور، أو ليتلذذ به العقل، أو تنال به الشهادة، أو تكتسب به الوظيفة. ولكنه يتعلم ليكون نبراسًا يهتدي به صاحبه ثم يهدي به غيره، يعمل به ثم يعلمه للناس، فمن

علِم وعمل وعلَّم[1] فذلك يدعى عظيمًا في مكلوت السماء. وقد أجمع السلف على أن الرجل لا يكون ربانيّاً حتى يعلم ويعمل ويعلِّم، وصدق الله ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

كتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما: «إن العلم كالينابيع يغشي الناس فيختلجه هذا وهذا، فينفع الله به غير واحد، وإن حكمة لا يتكلم بها كجسد لا روح فيه، وإن علمًا لا يخرج ككنز لا ينفق، وإنما مثل المعلم كمثل رجل عمل سراجًا في طريق مظلم يستضيء به من مر به»[2].

فليهيئ الأزهر نفسه، لتعليم الأمة، وتوجيه الشعب، وليخاطب كل قوم على قدر عقولهم، وليقدم لكل طائفة ما يصلح لها من دواء، وما يناسبها من غذاء، فعليه واجب نحو العامة، وواجب نحو الخاصة، وواجب نحو جبل الصحوة.

• واجب تنوير العامة:

إن على الأزهر واجبًا نحو عامة الناس، الذين يكونون جمهور الأمة، واجبه أن يعلمهم الإسلام النقي المصفى، خاليًا من الأجسام الغريبة التى لصقت به وليست منه فكدَّرت صفاءه، وشَوَّهَت جماله،

---

(١) علم وعمل وعلم: علم الأولى بكسر اللام، والثانية بفتحها مع التشديد.

(٢) رواه الدارمي في سننه في المقدمة (١/ ١٤٨) وابن أبي شيبة في مصنفه كتاب الزهد (٧/ ١٢١).

وأن يشن حملةَ تطهير على الخرافات والمعتقدات الشركية الباطلة، التي أفسدت عليهم عقيدتهم، والبدع الضالة التي أفسدت عليهم عبادتهم، وأخلاق الضعف والسلبية التي أفسدت عليهم إرادتهم، والعادات الضارة التي أفسدت عليهم حياتهم. وعليه أن ينتفع بما في فطرهم من سلامة، وما في قلوبهم من أصالة التدين، فيثير فيهم الغيرة على الحق، والتحمس للدين، والتنافس على الخير، ويعمل على أن يبث في عقولهم الأفكار السليمة، ويثبت في قلوبهم العقائد الصحيحة، ويُرَبِّي في أنفسهم الأخلاق القوية، وينشر فيما بينهم التقاليد الصالحة، مستخدمًا في ذلك الحكمة والموعظة الحسنة، والدعوة بالتي هي أحسن،

كما أمر الله تعالى.. وأن ينأى بهم عن متاهات الخلافات، وغرائب المقولات، وغوامض الآراء والاجتهادات، التي احتار فيها الخواص، فكيف بالعوام وقد قال ابن مسعود: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[1]. كما يجب على الدعاة الوعاة أن «يبسطوا» لهؤلاء دينهم غاية «التبسيط» اقتداء بالنبي الكريم في تعليمه ولا يكثروا عليهم تعاليم الإسلام بكثرة التفريعات والتفصيلات، وإضافة التشديدات والتعقيدات التي تجعل الدين السهل غاية في الصعوبة، وتجعل استيعابه نهاية في العسر، على غير ما شرع الله، وما أوصى رسوله ﷺ، فالله تعالى يقول في كتابه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ورسوله ﷺ يقول

(١) رواه مسلم في المقدمة (١٤).

لأبي موسى ومعاذ حين بعثهما إلى اليمين «يسرا ولا تعسر. وبشرا ولا تنفرا»[1].

• واجب توجيه الخاصة:

وعلى الأزهر وعلمائه واجب آخر، نحو خواص الأمة من المثقفين والمتنورين، وذلك بأن يحميهم من موجة الجحود والتحلل والاستهتار، والتقليد الأعمى للغرب.. تلك الموجة العاتية التي يدفعها إلينا التيار الغربي بشقيه: الشيوعي، والرأسمالي، الذي طغى على النفوس والأفكار والأوضاع... وأن يقدم إليهم الإسلام الذي يخاطب عقولهم المتفتحة، ويلائم روحهم المتوثبة، ويناسب معارفهم المتطورة، ويُفَجِّر طاقاتهم المتجددة. ولست أعني أن يخترع الأزهر لهم إسلامًا من عنده، يلائم عقليتهم! فالإسلام نفسه يملك من السعة والمرونة، ما يقدم به لكل مرتبة من الناس ما يناسب درجتها. فليس العوام كالخواص، وليس الخواص كخواص الخواص. وليس من الحكمة أن يخاطب الحضري بما يخاطب به البدوى، ولا أن يدعى المثقف بأسلوب الأمي.

وقد قال النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فادعهم إلى كذا وكذا..»[2] فدلنا على أن دعوة أهل الكتاب

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٨)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٣)، وأحمد في المسند (١٩٧٤٢)، عن أبي موسى.

(٢) رواه البخاري في الزكاة (١٤٩٦) عن عبد الله بن عباس، ومسلم في الإيمان (١٩) وابن ماجه في كتاب الزكاة (١٧٨٣) وأبو داود في الزكاة (١٥٨٤) والترمذي في الزكاة (٦٢٥) والنسائي في كتاب الزكاة (٢٤٣٥).

ليست كدعوة الأميين من المشركين. وقال علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!.

واجبنا مع الخاصة أن نطارد الأفهام الخاطئة في رؤوسهم والتصورات السقيمة للإسلام في أذهانهم، حتى يعلموا أنه ليس دين دروشة وانقطاع عن الحياة، ولكنه دين عمل وإنتاج، وليس دين تخلف أو جمود، بل دين تقدم وتطوير.. وليس دين عنف وتعسير بل دين سماحة وتيسير، وليس عبادة وروحانية فحسب، ولكنه نظام كامل يوجه طاقات الفرد، وحياة الأسرة وطبقات الأمة، وشئون الدولة، في سياستها واجتماعها، وإدارتها واقتصادها، وسلمها، وحربها.. بل يسعى إلى ربط العالم كله برباط الإنسانية والإخاء، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].. وحتى يعلموا أن محمدًا ﷺ لم يبعث ليحرجهم في دين، أو يضيق عليهم في دنيا.. وإنما جاء ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إذا أفهمنا الشعب دينه على هذا النحو فقد استحققنا أن نكون من معلمى الخير الذين عظم شأنهم رسول الله ﷺ فقال: «إن الله وملائكته وأهل السماء وأهل الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير»[1].

---

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٥) وقال: حسن صحيح غريب، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٣٤)، وقال الهيثمي في المجمع: فيه القاسم أبو عبد الرحمن وثقه البخاري وضعفه أحمد (١/ ٣٣٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٨).

• واجب ترشيد الصحوة:

وواجب آخر نحو المد الإسلامي المتصاعد أو ما اصطلح على تسميته أخيرًا بـ«الصحوة الإسلامية» التي تتمثل أبرز ما تتمثل في الجيل الجديد من شباب الجامعات والمعاهد، الذي ظهر في عدد من البلدان والأقطار الإسلامية، يقيم الشعائر، ويحيي من السنن ما مات، ويقاوم من البدع ما انتشر، ويتمسك بالآداب الإسلامية، ويعيد للناس الثقة بقدرة الإسلام على العطاء والتأثير.

ولا ينبغي للأزهر أن يقف من هذه الصحوة موقف العزلة عنها، أو الاستعلاء عليها، أو المخاصمة لها، وإن كان عليها بعض المآخذ في الفكر أو السلوك. ولا يجوز له أن يقف منها موقف العداء، ويضع نفسه موضع ممثل الاتهام، بل ينبغي أن تشعر هذه الأجيال المسلمة بأبوته لها، وحرصه عليها، وفرحه بها، ينبغي أن تشعر بأنه معها لا عليها. فهو يأخذ بأيديها، ويسدد خطواتها، ويقيل عثراتها، ويساند تطلعاتها، ويخفف من غلوائها، وينوه بإيجابياتها، ويحذر من سلبياتها، بعلم وحكمة، ورفق ورحمة.

ومن أبلغ ما جاء عن سلف الأمة هذه الكلمات الحكيمة، يقال: ما أحسن الإسلام يزينه الإيمان، وما أحسن الإيمان تزينه التقوى، وما أحسن التقوى يزينها العلم. وما أحسن العلم يزينه الحلم، وما أحسن الحلم يزينه الرفق!.

وحسبنا قول الله تعالى لرسوله الكريم: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

• **الأزهر والعالم الإسلامي:**

وليست مهمة الأزهر محدودة بحدود مصر وحدها، ولكن الأزهر للعالم الإسلامي الواسع، الممتد من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، هذا العالم الفسيح الذي يضم نحو ألف مليون مسلم[1] في أخصب بلاد الله أرضا، وأهمها موقعًا، وأغناها بالمعادن المذخورة، والثروات المنشورة.

ومن حسن حظ الأزهر أنه يملك من القدرات والعوامل التى تساعده على أداء مهمته في العالم الإسلامي ما لا يملكه أحد.

من هذه العوامل: تاريخه الحافل بالجهاد والعطاء في شتى الميادين وقد تحدثنا عنه من قبل.

ومنها: ما له من نفوذ عميق وهيمنة روحية بعيدة المدى.

فإن شعوبنا مازالت - رغم السموم التي روجها دعاة الإلحاد والإباحية - شعوبًا مؤمنة متدينة.. ولا زال لعلماء الدين عندها مكان أي مكان، ما داموا أكفاء في عملهم، أمناء على دينهم.

ولقد رأيت بعيني رأسى - في ريف مصر ومدنها - بعض العلماء والدعاة الموفقين، والشعب يكاد يقدس الواحد منهم تقديسًا: يعتقدون أن شارته حكم، وطاعته غُنْم، وحبه عبادة، وخدمته قربة، ورضاه من رضا الله، إذ هو وارث رسول الله ﷺ، وحارس هدى الله، ومرجع الكافة لمعرفة حكم الله ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

(١) أصبح عدد المسلمين اليوم أكثر من المليار وثلث المليار.

وإذا كان الشعب في بعض الأزمنة قد أشاح بوجهه، ونأى بجانبه، عن بعض كبار الشيوخ أو صغارهم، فلأنهم ولَّوْا وجوههم لغير الله، فولّى الشعب وجهه لغيرهم! ولأنهم فقدوا احترامهم لأنفسهم ففقدوا احترام الناس لهم، ورحم الله القاضى الجرجانى حين قال:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما!

ولكن أهانوه فهان، ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما!

صحيح أن هناك فئة قليلة تكره الأزهر وتكره علماء الدين عامة لأنها تكره الإسلام نفسه، وتكره العربية، والأزهر معهد الإسلام، وموئل العربية.

وهناك من يضيقون بالأزهر، لأنه شيء قديم، وهم أدعياء التجديد، وعباد كل جديد. أولئك الذين قال عنهم الرافعي ساخرًا: أنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر!!.

وقال عنهم شوقي:

لاتحذ حذو عصابة مفتونة يجدون كل قديم أمر منكرا

ولو استطاعوا في المجامع أنكروا من مات من آبائهم أو عُمِّرا

من كل ساع في القديم، وهَدْمِه وإذا تقدم للبناية قصرا

ولكن هذه الفئة وتلك ليست شيئًا مذكورًا بجوار عشرات الملايين التي تحب الأزهر وتقدر الأزهر.

ومنها: أن الأزهر خاصة له من خريجية وأبنائه جنود منتشرون في كل أرجاء مصر، وسائر أقطار الإسلام، بل سائر أقطار العالم.

وهل هناك جمعية لها أعضاء عاملون ومشتركون في كل مدينة وقرية وعزبة كما للأزهر الذي ينتشر أبناؤه في كل مكان؛ انتشار الأوردة والشرايين في الجسد؟ وهل يخلو مسجد في قرية من إمام وخطيب من الأزهر؟.

وهل تخلو قرية من مأذون شرعي من الأزهر؟ وهل تخلو مدرسة من مدرس للغة العربية والدين من أبناء الأزهر؟ وهل تخلو منطقة من واعظ أو مفت أو قاض من الأزهر؟.

ورحم الله شوقي حين عرف هذه الحقيقة، فخاطب بها أبناء الأزهر في قصيدته الرائية المشهورة:

هُزُّوا القرى من كهفها ورقيمها ... أنتم لَعَمْرُ الله أعصاب القرى

الغافل الأمي ينطق عندكم ... كالببغاء مرددا ومكررا

يمسي ويصبح في أوامر دينه ... وأمور دنياه بكم مستبصراً

لو قلتم: اختر للنيابة جاهلا ... أو للخطابة باقلا، لتخيرا

وهل هناك وكالة أنباء لها مندوبون ومراسلون في جميع أقطار الشرق كما للأزهر؟.

ولقد سافرت إلى الشرق الأقصى، فوجدت الأزهريين في كل مكان: في ماليزيا، وفي أندونيسيا، وفي تايلاند، وفي الفلبين. بل

وجدت أبناء الأزهر كان لهم القدح المعلى في تفجير الثورة الإسلامية، وقيادة الجهاد الإسلامى في جنوب الفلبين.

وسافرت إلى الغرب في أوروبا وأمريكا، فوجدت سفراء الأزهر، هناك، ما بين مواطن، ومستوطن، ومبعوث.

وفي أمريكا اللاتينية وفي أستراليا وأفريقيا، لا يغيب الأزهر، فحيث يوجد الإسلام يبعد ألا يوجد الأزهر.

وفي رحاب الأزهر اليوم آلاف مؤلفة من طلاب البعوث الإسلامية، من مختلف بلاد الإسلام في المشرق والمغرب، من الفلبين إلى المغرب، ومن تركيا إلى جنوب أفريقيا، بعثت بهم أقطارهم - وهم ثمرات أفئدتها، وحَبَّات قلوبها - ليعبوا من معين الدين فى الأزهر، ثم يعودوا إلى قومهم منذرين، ومعلمين وموجهين. وتستقبلهم أوطانهم استقبال السقيم للعافية لأنهم عادوا من قلب العروبة والإسلام، من مصر، من الأزهر، واستجابوا لقول الله تعالى: ﴿**فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٢].

من هنا كان على الأزهر أن يقدر مهمته الضخمة على مستوى الأمة الإسلامية، ومستوى العالم الإسلامي الكبير.

هذا العالم ذو التاريخ الحافل بالروائع والبطولات، والحاضر العامر بالآمال والطموحات، في حاجة إلى من يجلو الصدأ عن جوهره، ويزيح الران عن قلبه، ويعرفه بموطن القوة فيه، بعقيدته وتاريخه، ويجمعه على كلمة سواء: كلمة التوحيد..

ومَنْ أولى مِنَ الأزهر بهذه المهمة الجليلة، وبخاصة أن مكانته في أمة الإسلام في موضع السواد من العين، والسويداء من القلب؟.

ومما يؤخذ على الأزهر أنه لم يعط هذا «الجيش الاحتياطى»، من أبنائه المنتشرين في الأرض، حقه من الاهتمام والرعاية.

ولم يضع أي تنظيم، ولم يتخذ أية خطوة عملية للتعرف على خريجيه، والاتصال بهم، عن طريق المكاتبة والمراسلة، أو الزيارة لهم في بلدانهم ومواقعهم في بعض الأحيان، أو دعوة من تساعده الظروف منهم إلى الأزهر في بعض المناسبات. ومن الواجب أن يبادر الأزهر، فينشي «مكتبا للخريجين» -وبخاصة من كانوا خارج مصر- يعمل على تكوين سجل أو «أرشيف» لهم، يعرف منه: أين يعمل خريج الأزهر، وما عمله وما عنوانه؟ وما يمكن أن يؤديه من خدمة للإسلام وأهله، داخل بلده أو خارجها. وما يمكن أن يبعث به من تقارير عن أوضاع المسلمين حيث يقيم. وخصوصًا من هيأ الله له أن يقف على ثغرة هامة أو يوضع في موقع مؤثر في مجتمعه.

فقد أصبح من هؤلاء الوزير والسفير، والعميد والمدير، والتاجر الكبير، ومنهم القاضي والمفتي والداعية والمعلم.

وعلى المكتب أن يعمل على دوام الاتصال بهم، والاستفادة منهم في أمر الدعوة إلى الإسلام، ومقاومة الهجمات التنصيرية والشيوعية وغيرها على أبنائه، والمساهمة في حمل هموم المسلمين - ولا سيما

الأقليات والجاليات - وحل مشكلاتهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ويمكن أن يتكون من هؤلاء الخريجين وأمثالهم من أهل العلم - إذا حسن الاتصال بهم وانتظم - رابطة أو «اتحاد لعلماء الإسلام» في العالم.

• الأزهر وهداية العالم:

ليست مهمة الأزهر موقوفة على العالم الإسلامي فحسب، فإن الأزهر حامل رسالة الإسلام وهي رسالة إنسانية عالمية شاملة، ليست رسالة إقليم معين، ولا جنس خاص: أول سورة فى كتابها تبدأ بحمد الله «رب العالمين»، وآخر سورة فيه تبدأ بالاستعاذة ﴿**بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ**﴾ [الناس: ١- ٣] فإله الإسلام إله العرب والعجم والجن والإنس والملاك والجماد، «رب العالمين». وكتاب الإسلام عالمى الاتجاه، ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾ [الفرقان: ١].

ورسول الإسلام ليس مبعوثا إلى العرب خاصة، ولكنه رسول الله إلى الناس كافة ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ [الأعراف: ١٥٨] - ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. والمسلمون أمة من طبيعتها أن تمتد بدينها امتداد الضوء، وتعلن حقها وعدلها على الناس، كما أعلنه من قبل مندوب المسلمين أمام رستم: «نحن قوم قد

ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[1].

فهل يقبل من الأزهر أن يحبس نفسه في قفص، ويترهب في صومعة، تاركا آفاق العالم الرحبة للمذاهب الهدامة، والمبادي الفتاكة، الدعوات المدمرة تصول فيه صيال الأفاعي السامة، تنفث السم والموت والخراب؟!

إن على الأزهر أن يتقدم إلى العالم المعذب بقارورة الدواء، وإلى الدنيا التي أحرقها لهب المطامع المادية بمضخة الإطفاء، وإلى الإنسانية المضطربة برسالة محمد ﷺ: رسالة الإيمان والإخاء والعدل والحرية والسلام ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

****

(١) القائل هو ربعي بن عامر، وراجع القصة بكاملها في البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ٤٦)

عوامل النجاح ومقوماته في رسالة الأزهر

هناك عوامل ثلاثة لها أعمق الأثر في نجاح الأزهر في رسالته:

• **أولها: استعداد شعوبنا للتدين، وتقبلها لفكرة الإسلام**

فإذا أخذنا الشعب المصري مثلا، وجدناه شعبا مؤمنا متدينا بفطرته وتاريخه.. ولا ينقصه إلا من يوقظ فيه الروح، ويشعل الجذوة، ويقوده بالفكرة الواضحة إلى الطريق السليم.

ومصر إنما بنت الأهرام في عهد الفراعنة باسم الدين... وابتكرت عملية التحنيط العجيبة بدافع من الدين.. ولم تحرز نصرا في التاريخ الوسيط أو الحديث إلا بقوة الدين...

انتصرت على أوروبا الصليبية يوم قادها صلاح الدين باسم الله تحت لواء الإسلام.

وانتصرت على الزحف التتري الوحشي يوم صرخ المظفر قطز في جنوده: «وا إسلاماه».

وقاومت الجيوش الفرنسية الزاحفة بتوجيه علماء الدين.. وانطلقت موجات ثورتها سنة ١٩١٩ من الجامع الأزهر تحمل روح الدين..

ولم يثبت في ميادين فلسطين ويُبْدِ روائع البطولة إلا أهل الدين..

ولم يرعب الإنجليز في القنال إلا شباب صنعتهم المحاريب، رهبانا بالليل، فرسانا بالنهار!.

ولم يتحقق النصر في العاشر من رمضان على القوة التي زعموا أنها لا تقهر، ولم تعبر القناة، وتقتحم خط «بارليف» إلا بجهاد الصائمين القائمين، وإيحاء صيحة «الله أكبر»!

وقد كانت هذه المعركة فرصة تجلت فيها مصر الحقيقية، وذاب الطلاء الأجنبى الزائف الذي أراد بعض الرقعاء من عباد الغرب أن يغطوا به معدنها الأصيل. وشاء الله أن يحبط سعيهم، ويظهر مصر كالعهد بها.. مصر المؤمنة الإلهية، التي اعتنقت المسيحية فضحّت في سبيلها بالآلاف وعشرات الآلاف من الشهداء، واحتضنت الإسلام دينا ودولة، ولغة وحضارة، فكانت ولا تزال كعبته الثقافية التي يتجه إليها المسلمون فى شرق الأرض وغربها، وخاضت المعارك في سبيل الذود عن حماه.

وقديما قال المؤرخ اليوناني «هيرودت»: «المصريون قوم دينيون».

وحديثا قال عنهم مثل ذلك «ستانلى لن بول» حينما عاش بينهم في أوائل القرن التاسع عشر.

وإذا تحدثت عن قوة إيمان الشعب المصري وسلامة فطرته، فلأنه الشعب الذي فيه الأزهر، وولدت ونشأت فوق ترابه وقد لمست بالرحلة والمخالطة: أن الشعوب العربية والإسلامية كلها لا تختلف كثيرا عن مصر، إيمانا بدينها وغيرة على إسلامها، حتى الشعوب التي أعلن حكامها نبذ الدين مثل تركيا، التي أعلنها «أتاتورك» دولة لا دينية،

لا زال شعبها - وخاصة في الأناضول - مؤمنا بربه، متمسكا بدينه، لا يهزه شيء كما تهزه كلمة الإسلام، كما تدل على ذلك آلاف المدارس القرآنية، وعشرات المعاهد الدينية، التي أنشأها الشعب بالجهود الذاتية.

مما اضطر الحكومات أن تعدل موقعها بعض الشيء من الدين، وأن تتملق الرأي العام المسلم في الانتخابات. وقد تجلى هذا التيار الشعبي القوي في مساندة حزب «العدالة» من قبل، وفي قيام حزب «السلامة» من بعد، وهو الحزب الإسلامي الذي يرجى له أن يكون حزب المستقبل بإذن الله[1].

وهل هناك دليل أنصع وأوضح من الجزائر التي احتلها الاستعمار الفرنسي، قرنا وربعا. وبقي - مع هذا - شعب الجزائر عربيا صريح العربية، مسلما عميق الإسلام.

وقد شهد بهذه الحقيقة - قوة الدين لدى شعوبنا - من خالط العرب والمسلمين الأجانب والمستشرقين، وكتب عنهم.

يقول المؤرخ الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي المعروف «جوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب»:

«تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر. ولا تزال العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشدا لها تعمل بأحكامه كما

---

(١) والآن يحكم تركيا حزب (العدالة والتنمية) بقيادة زعيمه الطيب أردغان. وهو حزب ذو توجه إسلامي، وجذور إسلامية وقد نجح نجاحًا باهرًا في النهوض بتركيا، وحل كثيرًا من مشاكلها، برغم الدستور العلماني.

كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنا. أجل قد تجد بين المسلمين عددا قليلا من الزنادقة والأخلياء. ولكنك لن ترى من يجرؤ منهم على انتهاك حرمة الإسلام في عدم الامتثال بتعاليمه الأساسية. فالصلاة في المساجد، وصوم رمضان الذي يراعي جميع المسلمين أحكامه بدقة، مع ما في هذه الأحكام من صرامة، لا نجد مثلها في صوم الأربعين الذي يقوم به النصارى، كما شاهدت ذلك في جميع الأقطار الإسلامية التي زرتها في آسيا وأفريقيا. ومن ذلك أتيح لي أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مقرنين في الأصفاد، ومتهمين بأنواع الجرائم. فقضيت العجب حين رأيتهم - وهم الذين خرقوا حرمة جميع القوانين الاجتماعية مستخفين بأقصى العقوبات - لم يجرأوا على انتهاك تعاليم النبي، حين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله القهار ويعبدونه.

«وعلى من يرغب في فهم حقيقة أمم الشرق - التي لم يدرك الأوروبيون أمرها إلا قليلا- أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها. وللدين - ذي التأثير الضئيل فينا - نفوذ عظيم فيهم. وبالدين يؤثر في نفوسهم. ولولا الدين ما حرك ساكن المصريين، منذ الثورة التي ضرجت مصر بالدماء -يعني ثورة ١٩١٩-». إلى أن يقول:

«إن الرجل الذي يخاطب العرب باسم الله يطاع لا محالة ما علموا أنه يتكلم باسم الله حقا».

«فعلى الواحد المؤمن أو الملحد أن يحترم هذا الإيمان العميق الذي استطاع العرب أن يفتحوا العالم به فيما مضى. وهم اليوم يصبرون به على قسوة المصير»[1].

تلك هي طبيعة هذه الأمة، وذلك هو تأثير الإسلام في أبنائها العرب وغيرهم من «العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشدا لها» كما يقول لوبون.

ويقول الأستاذ «كليرنج» في كتابه عن «الشرق الأدنى.. مجتمعه وثقافته»:

«إن الدين مرآة تنطبع عليها القيم الروحية والثقافية للشعوب بأجلى صورها وهو للجماعة كالحدقة من العين، ترتسم عليها صور الحقائق التي توليها الاهتمام».

أما الأستاذ «أليسون» فيؤكد استنادا إلى وقائع التاريخ ذاته بأن الاستقرار لدى الآسيويين على الأخص -في حاجة دائما إلى الاستناد إلى الدين.

وهذا موافق لما ذهب إليه فيلسوف التاريخ «ابن خلدون» في شأن العرب والترك وغيرهم من شعوب الشرق من حيث قوة تأثير الدين فيهم، حيث يصبح الوازع لهم من أنفسهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة، الوازع عن التحاسد والتنافس[2].

---

(١) من كتاب «حضارة العرب» لجوستاف لوبون- تعريب عادل زعيتر ص٤١٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون- الكتاب الأول- الفصل ٢١- ٢٧.

فمن أراد أن يصنع بهذه الأمة العجائب، ويقتحم بها المخاطر، ويخوض بها لجج المعارك، ويعيد بها أيام خالد وصلاح الدين فليخاطبها باسم الله، وليقدها بزمام الإيمان، وليجمعها تحت راية القرآن، وكلمة الوحيد، وقيادة معلمها الأول محمد عليه الصلاة والسلام. وليربطها بأيام الإسلام، وتراث الإسلام، وإيمان الإسلام[1].

• ثانيا: عظمة الرسالة التي يدعو الأزهر إليها: رسالة الإسلام:

فليس فيها ما ينافي العقل، أو يعادي التقدم، أو يعرقل سير الحضارة.. وإنما هي رسالة جاءت تحارب الوثنية بالتوحيد، والإباحية بالفضيلة، والجهل بالعلم، والجمود بالتحرر، والتخلف بالتقدم، والظلم بالعدل، والفوضى بالنظام، والتعصب بالتسامح، والاستبداد بالشورى، وصراع الطبقات بالإخاء والمساواة، والنزعات القومية بالدعوة العالمية، والتكالب على المادة بإثارة أشواق الروح.

واستعانت على تحقيق أهدافها بالفطرة الإنسانية نفسها، فهي لم تجىء لمحاربتها وتغييرها، وإنما جاءت لتهذبها والسمو بها ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ [الروم: ٣٠].

ولم يسمح الإسلام أبدا بما ينافي الفطرة، فحارب بكل قوة نظام الرهبنة؛ لأن فيه تعطيلا للغريزة الجنسية والغريزة الاجتماعية، وسدّ

---

(١) من كتابنا: الحل الإسلامي فريضة وضرورة.

الطريق على دعاة التـقشف والحرمان، فـأعلن القرآن الكريم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وهذا ما شهد به المنصفون ممن درسوا الإسلام من مصادره الحقة، ولم تمنعهم العصبية العمياء، ولا الخوف من الشهادة بالحق وإعلانها على الملأ دون تردد، ومن هؤلاء من أعلن إسلامه مثل ليوبولد فايس «محمد أسد» ورينيه جـينو «عبد الواحـد يحيى»، واللورد «هدلي»... وأخـيرا المفكر الفرنسي اليساري الشهيـر «روجيه جارودي» الذي أعلن إسلامه، وسمى نفسه «رجاء جارودي» وأصدر كتابه المسمى «بشائر الإسلام».

ومن هؤلاء المنصـفين من لم ينته إلى الدخول فـي الإسلام، ولكنه أعطاه حقـه، وقدَّره قـدْرَه، مثل «تومـاس كارلايل»، و«تولسـتوي»، و«برنارد شـو»، و«ديفا جليري»، «ومـوريس بوكاي» و«نظمـي لوقا». وغيرهم ممن اعترفوا بما تميـز به الإسلام من التكامل والتوازن والشمولية والواقعية التي تتجلى في كل تعاليمه.

يقول الأستاذ «رولز» مؤلف كتاب «تاريخ العالم» من كلام طويل له عن القرآن والإسلام خـتمه بقوله: «إذا طلب منـي القارئ أن أحدد له الإسلام فـإني أقول له: الإسـلام هو المدنية. وإذا أراد أن يـعرف ذلك فليقرأ القرآن».

وفي سنة ١٩٦٢ اسـتقدمت الحكومـة المصرية خـبيرين أجنـبيين من أوروبا للاسـتعانة بآرائـهما في إصـلاح أجهـزة الحكم، وتنظيم الإدارة

الحكومية، والخبيران هما: مستر «لوتر جيوليك»، و«جيمس هـ. بولوك»، فمكثا مدة يبحثان ويرجعان إلى الخبراء المصريين ويستمعان إليهم. ثم قدما تقريرًا إلى الحكومة ذكرا فيه ما وصلا إليه من قواعد إصلاحية في الحكم.

ثم قالا في نهاية التقرير: «ويتجلى من هذه النقاط أن الثقافة الإسلامية من أصلح الأسس للحكم الناجح في العصر الحديث.

وليس هذا فحسب. بل إنها تقدم للشعب المصري المسلم المبادئ التي يمكن أن يقيم عليها ديمقراطيته».

«وإذا صح ما ذهبنا إليه في تلك العجالة القصيرة - وهو صحيح - فإن الثقافة الإسلامية تكون أبعد الأشياء من إعاقة سير التقدم والتطور في النظم الحكومية، كما تكون أبعد الأشياء عن الدعوة العمياء، أو التشبث بالتقاليد العتيقة البالية.

ذلك لأن الثقافة الإسلامية تشجع الإنسان على استخدام عقله في تقدير مقتضيات العالم الحديث مع الاطمئنان إلى القيادة المسئولة، وتبادل الرأي والمشورة، وهذا على وجه التحديد هو المنهج الذي صارت الحاجة ماسة إليه[1].

---

(١) من كتاب «نحو تقنين جديد» للأستاذ المستشار عبد الحليم الجندي - نقلا عن كتاب «إسلام لا شيوعية» للدكتور عبد المنعم النمر.

• ثالثا: حاجة العصر الذي نحن فيه:

نقل المرحوم فريد وجدي عن الأستاذ (هنري بيرانجيه) في المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجلات الفرنسية قال: «إن المسألة الدينية أهم ما يشغل العالم المتدين اليوم، لأن مستقبل الأمم المتحضرة يتوقف على حلها».

فقد كان القرن الماضي (التاسع عشر) عصر الغرور العلمي، بهرت المادة أبصار الباحثين، فتنكروا للدين، وأنكروا ما وراء الطبيعة! فلما استقر العلم، وغاصوا في بحاره تبين لهم أن وراء المادة روحا، ووراء الكون مكونا أعلى، وأن مع الدنيا دينا لا تستقيم أمورها بغيره. حتى قال باحث غربي معبرا عن حاجة الناس إلى الإيمان بالله: (لو لم يكن الله موجودا لوجب علينا أن نخلقه!) وقال آخر: (يجب أن يزج في السجن كل صاحب مدرسة يكون شعارها: لا يعلم الدين هاهنا).

إن الرقي العلمي الهائل، والتقدم الصناعي الجبار، قد جعل الإنسان يتغلب على المسافات، ويختصر الزمن، ويغزو الفضاء، ويعيش في رفاهية، ربما لم يعرفها الملوك من قبل. ولكنه لم يحقق له السعادة التي تنبع من استقرار النفس وطمأنينة القلب، وذلك لا يتم إلا بالإيمان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فلا غـرو إذا شكا إنسان الـعصر من سُـعار المادة، وأحس بـظما شديد إلـى رحيق الروح، وسئـم من النزعات القـومية الحـادة التي حولت العالم إلى غـابة كبيرة من سباع البـشر، وبات يَئِنُ من نيران الحروب التـي التهمت أخـضره ويابسـه، وصار يتلهف عـلى دعوة ربانيـة إنسـانيـة عـالميـة تمزج بين الروح والمادة، وتجـمع بين الدنيـا والدين، وتؤلف بـين القلب والعـقل، وتوفق بـين حـقـوق الفـرد ومصلحة المجموع، وتنقل الناس من سجن الوطنية والقومية الضيقة إلى باحة الـعالمية الفـسيـحة. ولن يجد ذلـك إلا في الإسلام الذي يحمله الأزهر.

هذا إلى أن الإسلام الآن في يقظة، والمسلمين في نهـضة، والشباب المسلم في صحوة، تمتد من المحيط إلى المحيط، وهم ونحن يملؤنا الأمل بل يغمّرنا اليقين: أن الإسلام لابد أن يسود، وأن الدولة الإسلامية لابد أن تعود.

وعند ذاك ستحتاج إلى الدعاة والموجهين، والفقهاء والمشرعين، فمن ذا يمدها إلا الأزهر؟

مقومات النجاح

هذه هي عـوامل النجاح، وبـواعث الرجاء، ودواعي الأمل، أمـام علماء الأزهر، وهي عوامل جـديرة أن تفتح لهم الأبواب، وتهيئ لهم الأسـباب، ولكن هذه العـوامل لا تؤتي أكلهـا، إلا إذا اكتـملت لدى

علماء الأزهر مقومات لابد منها للنجـاح في رسالتهم، والقيام بها على الوجه المنشود.

وأهم هذه المقومات ما يلي:

١- الدراسة الواعية للإسلام وللعصر:

المقوم الأول: الدراسة الواعيـة المتعمقـة للإسلام، بوصفه عـقيدة وشريعـة ونظام حياة أنزله الله، ليـزكي به الأفراد، ويسعـد الأسر، ويصلح المجتمعات، ويوجه الحكومات، ويهدي العالمين إلى التي هي أقوم.

ولدى الأزهر الينبوع الصـافي الذي يستمد منه المـعرفة الصحـيحة للإسلام، وهو الكتاب الكريم، والسنة المطهرة، وهذه الكنوز الضخمة من التراث الإسـلامي في كل مجال، وهـذا التاريخ الحافل بالأمـجاد والبطولات، المشرق بالآيات البينات. فـلينفض الأزهر الغبار عن هذا التراث العلمي المجـيد الذي خلفـه السابقون، ولينتـفع بما كتبـه ثقات المعاصرين في الحـقل الإسلامي الجديد في شريعة الإسلام، وعـقيدته ونظامـه، ومـا ظهـر من دراسـات حـول الـقـرآن والسنة والسـيـرة والتاريخ.. وحـول العقيدة والشريـعة والاقتصاد ونظـم الحياة. ومن أولى من الأزهر بدراسـة الإسـلام دراسـة جـيدة فـاحـصـة، وعنده وسائلها، ولديه أسبابها ومقدماتها؟ فقد توسع فى دراسة العربية لغتها وأدبها ونحوهـا وصرفها ومعـانيها وبيانهـا، وعاش في كتب التفـسير

والحديث، والفقه والتشريع، وأخذ بطرف من الفلسفة والمنطق.. وضم إلى ذلك دراسة العلوم التي يسمونها في الأزهر «العلوم الحديثة» وهي في الواقع علوم قديمة عرفها المسلمون أيام حضارتهم الزاهرة، وكانت لهم فيها قدم راسخة، وإبداعات رائعة، وعنهم أخذها الغرب، ومنهم اقتبس الحقائق العلمية، والمنهج التجريبي.

ولا بد مع ذلك أن يدرس الأزهر واقع العصر الذي يعيش فيه:

١- واقع الأمة الإسلامية الممتدة، وما تملك من طاقات، وما تمور به أرضها من تيارات، وما تتعرض له من مشكلات، وما يقدمه لها الإسلام من حلول.

٢- واقع القوى المعادية للإسلام، المتربصة بأهله، من يهودية، وصليبية وشيوعية، وما تدبره من مكايد، وما تخطط له من أهداف، وما تصطنعه من وسائل، وما يساعدها من عوامل وعملاء من داخل الأمة.

٣- واقع الأديان والمذاهب المعاصرة، والفرق المنشقة عن أمة الإسلام، وما تتخذه من غايات وأساليب في تضليل الأمة، وتبديد قدراتها، وتعويق مسيرتها، وتفريق شملها.

وبهذا يجمع الأزهر بين الأصالة والمعاصرة، فيحافظ على الماضي، ولا ينعزل عن الحاضر.

وهذه الدراسة المتكاملة التي تجمع بين القديم والجديد، وبين المعقول والمنقول، تحتاج إلى مواصلة السهر والعناء: سهر الليل وعناء النهار.

وقد كـان من علماء أمـتنا وحكمائها من يدرس كـل النهار وبعض الليل، فإذا أوى إلى الفراش نام مشغول الفكر والقلب ببعض المشكلات العلمية؛ فـيهتدى إلى حلها فـي نومه، وكان فيهم من يجـوب القِفار، ويركب البحار، في سبيل حديث يسـمعه أو حكمة ينشدها، وقد رحل أبو أيوب الأنصاري من الحـجاز إلى مصـر ليسمع من عـقبة بن عـامر حديثا واحـدا عن رسول الله ﷺ في ستر المسلم على المسلم، فسـمعه وركب راحلته وانصرف إلى المدينة وما حل رحله.

وقال الشعبي: لو أن رجلا سافـر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة، ما رأيت أن سفره ضاع. وقد حدث رجلا بحديث ثم قال له: أعطيتكه بغير شيء، وإن كان الراكب ليركب فيما دونه إلى المدينة[1].

وقال سـعيد بن المسـيب: إن كنت لأسير اللـيالي والأيام في طلب الحديث الواحد.

وقد رأينا البخاري يحفظ كتب المحدثين كابن المبارك ووكيع وهو ابن ست عشـرة سنة، ثم يرحل في طلب العلم إلى جميع الأمـصار: إلى مرو، ونيسابور، والري، وبغداد، والبصرة، والكوفة، ومكة، والمدينة، ومصـر، ودمشق، وقيصـارية، وحمص، وعسـقلان... وذلك لنعلم مدى الجـهد الكبير الـذي بذله أسلافنا في خدمـة العلم ورعاية الدين، وها نحن اليوم قد يسـر الله لنا أسباب العلم، ومهد لنا سـبله، فأصبح

(١) كان الشعبي في الكوفة.

منا داني القطوف، قريب المنال، لا يحتاج منا إلا إلى الرغبة الصادقة، والإرادة المصممة، والأمل الطموح، وإلى تنظيم الوقت، وإعمال الفكر وإطراح العبث، والبعد عن سفاسف الأمور، ولهو الحديث..

٢- القدوة الحسنة:

والمقوم الثاني للنجاح: هو القدوة الحسنة، تقدم للناس عن طريق الالتزام بالإسلام والعمل به، فالعلم الذى يسكن الرأس، ولا ينفذ شعاعه إلى القلب نظريات ضائعة، ربما كانت وبالاً على صاحبها.

وقد اشتد غضب الله على من يأمرون ولا يأتمرون، ويعلمون ولا يعملون ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ٤٤]. وكان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع**»[(١)].

وقد عاب شاعر الإسلام الدكتور إقبال على المدرسة الحديثة، ونظام التعليم الذي استورده المسلمون من أوروبا فقال: «إن المدرسة الحديثة قد تعلم الشباب التأنق في الزي، والتشدق في الحديث، ولكنها لا تعلم عينه الدموع ولا قلبه الخشوع»!!.

فإذا كان الأزهري كغيره لا يمتاز بطرف دامع، ولا بقلب خاشع، ولا بعمل صالح، فماذا بقي له من أن أزهريته غير العمامة و«الكاكولة» إن بقيتا؟؟..

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٢) وأحمد في المسند (١٩٣٠٨) والنسائي في «السنن الكبرى» كتاب الاستعاذة (٧٨١٧) وفي «المجتبى» كتاب الاستعاذة (٥٤٥٨).

إنه لا يغني عن المرء أن يحشو رأسه ببعض المعلومات، ويطلق لسانه ببعض العبارات والمصطلحات، ففي الأثر: «**العلم علمان: علم على اللسان، فذلك حجة الله تعالى على خلقه، وعلم في القلب، فذلك العلم النافع**»[1].

وكان عمر يستعيذ بالله من المنافق العليم فقيل له: كيف يكون منافقًا وعليمًا؟ فقال: عالم اللسان جاهل القلب[2].

إن الله ضرب أسوأ مثلين لمن علم ولم يعمل: مثله حينا بالكلب، وحينًا بالحمار[3].

وكان علي كرم الله وجهه يقول: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك، هذا يغر الناس بتنسكه، وذاك يضلهم بتهتكه![4].

---

(١) رواه الدارمي في سننه في المقدمة (٣٦٤) عن الحسن، وابن أبي شيبة في مصنفه كتاب الزهد (٧/ ٨٢) وقال الحافظ العراقي: أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح، وأسنده الخطيب في التاريخ من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد وأعله ابن الجوزي (١/ ٥٩).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣١٠) وقال مخرّجوه: إسناده قوي

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] وقوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الجمعة: ٥].

(٤) ذكره الغزالي في الإحياء (١/ ١١٤) والمناوي في فيض القدير (٦/ ٣٧٨).

إن العمل بمقتضى العلم من الضرورات الأولى لمن يحمل رسالة هداية إلى الناس، فالناس لا يؤثر فيهم مجرد العلم، ومحض القول، وإنما تؤثر فيهم القدوة الحسنة والأعمال الطيبة، والانفعالات الصادقة، وقد قالوا: «حال في ألف رجل أبلغ وعظا من مقال ألف رجل فى رجل»!.

ومن حرم العمل بمبادئه التي يدعو إليها، فهو في الحقيقة إنما ينفر الناس منه، ويدعوهم إلى البعد عنه، وسيقول له الناس: يا طبيب طب نفسك! ويرددون قول المسيح لعلماء السوء: «إلى متى تصفون الطريق للمدلجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين؟ إلى متى ترون القذى في أعين الناس ولا تبصرون الخشبة في أعينكم»؟!

إن الهفوة التي تصدر عن صاحب دعوة ينظر الناس إليها بالمجهر «الميكروسكوب» وزلة العالم يضرب بها الطبل، وزلة الجاهل يخفيها الجهل، والعظيم إذا صدرت منه صغيرة كبرت، والحقير إذا سقط في كبيرة صغرت، ونقطة المداد في الرقعة البيضاء غيرها في الرقعة السوداء، هي في الأولى أظهر ما تكون، وفي الثانية أخفى ما تكون.

٣- أخلاق العلماء:

والمقوم الثالث: يتمثل في مكارم الأخلاق: أخلاق العلماء، التي ألف فيها السلف.، واتضحت معالمها أمامهم، فبالخلق يؤثر الرجل في بيئته، ويصمد أمام العواصف، ولا ينقطع في وسط الطريق.

وأهم ركائز الأخلاق التي نريدها مجسدة في كل عالم أزهرى، وبالتالي في كل عالم مسلم هي:

أ- الشجاعة:

ونعني بالشجاعة من أخلاق العلماء: شجاعة العالم في قول الحق والثبات عليه، والصبر على ما يصيب المرء في سبيله، فذلك لن ينقص من عمره، ولن يحرمه رزقًا هو له ورحم الله أحمد شوقي حين قال:

قف دون رأيك في الحياة مجاهدًا إن الحياة عقيدة وجهاد!

وقد ضرب علماء السلف في ذلك أروع الأمثال... ومنهم الأئمة الكبار الذين تعرضوا من ولاة غاشمين، للضرب والأذى، من أجل أقوال لهم أو مواقف أصروا عليها، ولم يتنازلوا عنها، حتى إن الإمام أبا حنيفة مات في السجن، حين طلبته الدولة للقضاء فرفض.

وأما ما أصاب الإمام أحمد بن حنبل في فتنة «خلق القرآن» من المحنة والأذى والسجن والضرب، لشجاعته وثباته على موقفه في مواجهة الموقف الذي تتبناه الدولة ورجالها، وعلى رأسهم الخليفة - فهو معروف مشهور.

ووقف عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء في زمنه مواقف مشهورة من أمراء المماليك، حتى إنه عرضهم للبيع باعتبارهم ملك بيت مال المسلمين، حتى قيل عنه: بائع الملوك!.

وامتحن ابن تيمية أكثر من مرة، وكاد له خصومه حتى أدخل السجن، وقدر له أن يموت فيه، ولكنه ظل على رأيه، مستمسكًا بالحق الذي يؤمن به، غير مبال بما أصابه في سبيل الله. قائلاً كلمته الشهيرة: ماذا يصنع أعدائي بي؟! أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.[1]

ولما أدخلوه سجن القلعة في دمشق، ورأى سورها، تلا: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

ب- الزهد:

ومن أخلاق العلماء: الزهد في الدنيا، والزهد لا يعني الفقر من المال، أو تحريم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، فنعم المال الصالح للمرء الصالح، وقد كان من الصحابة - بل من الأنبياء - رجال أغنياء لم تلههم أموالهم وثرواتهم عن ذكر الله، وعن الدعوة إلى الله.

إنما الزهد المراد: زهد القلب... أن يملك الدنيا ولا تملكه، ويستخدمها ولا تستخدمه، ويجعلها في يده لا في قلبه... ألا يتخذها ربا فتتخذه عبدًا لها.

الزهد ألا يجعل الدنيا أكبر همه، ولا مبلغ علمه، ولا محور تفكيره. وأن يركلها بقدمه إذا تعارضت مع عقيدته، أو دعوته. وإذا

---

(١) نقل ذلك عنه تلميذه ابن القيم في كتابه: الوابل الصيب من الكلم الطيب. ص ٦٩. ط. دار الكتاب العربي.

عرض له أمـران: أحدهمـا للآخرة، والآخـر للدنيا، آثر الآخـرة على الدنيا، ترجيحًا لما يبقى، على ما يفنى.

الزهد أن يكون المرء بما في يد الله أوثق منه بما في يده.

هذا الزهد هو الذي يُصَـغِّر المال والجـاه والمنصب والشهـرة في عين صاحبه، فـلا يرى للدنيا كلها إلا جناح بعوضة، فـماذا عسى أن يكون نصيبه منها؟!!

هذا الزهد هو الذي جعل بعض علماء السلف يقول للخليفة - وقد قال له: ارفع إلينا حاجتك.

قال: أن تدخلني الجنة، وتزحزحني عن النار! قال: ذاك ليس إليَّ. قال: مالي حاجة غيرها.

قال: اسأل حاجتك من الدنيا. قال: إني لم أسألها من ربي، فكيف أسألك إياها؟!.

وهو الذي جعل بعـض علماء الخلف[1] يمد رجليه في درسـه أمام الباشا، على عادته مع تلاميذه، غير خائف ولا متهيب، فلما بعث إليه الباشا بعد انصرافه بصـرة من الدنانير، ردها إليه قائلاً: قل للأمير: إن الذى يمد رجليه لا يمد يديه!

---

(١) هو الشيخ سعيد الحلبي، عالم الشام في عـصره، وكان الباشا هو: إبراهيم محمد على باشا.

جـ- الإخلاص:

فلا ينبغي أن يطلب الأزهري العلم لدنيا يصيبها، أو يعلمه للناس لجاه يدركه، ولا ينبغي أن يكون كل همه أن يُقْبِلَ عليه الناس، وأن يلتفوا حوله، وتنطق ألسنتهم بإطرائه. فإن هذه النية تفسد عليه أمره، وتحوله عن ابتغاء وجه الله إلى ابتغاء وجوه الناس، فإن الأعمال والعبادات أشباح وصور، وروحها وجود سر الإخلاص فيها، والدنيا كلها ظلام إلا موضع العلم، والعلم كله ضياع إلا موضع العمل، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾ [البينة: ٥].

وفي الحديث: «**من تعلم علمًا مما يبتغي به وجه الله تعالى ليصيب عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**» - يعني ريحها -[(١)]. ويقول الحديث الآخر «**لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا تماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار**»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (٨٤٥٧) عن أبي هريرة، وقال مخرّجوه: إسناده حسن، ورواه ابن ماجه في المقدمة (٢٥٢) وأبو داوود في العلم (٣٦٦٦) وابن حبان في العلم (٧٨) والحاكم في مستدركه كتاب العلم (١/ ١٦٠) وقال: هذا حديث صحيح سنده ثقات على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقد أسنده ووصله عن فليح جماعة غير ابن وهب، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٤).

(٢) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٥٤) عن جابر، وابن حبان في صحيحه كتاب العلم (٧٧) والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٨٢) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٨).

د- العزة:

ومن أخلاق العلماء: العزة التي هي من أخص فضائل المؤمنين ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [[المنافقون: ٨] والعلماء هم صفوة المؤمنين.

والعزة شيء غير الغرور أو العجب أو الكبر، وهي لهذا لا تنافى فضيلة التواضع التي تحدثنا عنها.

هي عزة في مواجهة المستكبرين بالسلطان، أو المتعالين بالثروة، أو المباهين بالقوة، أو المفاخرين بالنسب، أو المكاثرين بالعدد، أو غير ذلك من أعراض الدنيا.

فهي عزة بالعلم والإيمان، وليست عزة بالإثم والعدوان، عزة تلتمس من الله ولا تطلب من الناس، ولا عند أبواب السلاطين ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

سأل الحجاج خالد بن صفوان: من سيد البصرة؟ فقال له: الحسن (البصرى) فقال: وكيف وهو مولى؟ - أي ليس من قبائل العرب ذوي الحسب. فقال: احتاج الناس إليه في دينهم، واستغنى من الناس فى دنياهم، وما رأيت أحدًا من أشراف أهل البصرة إلا هو يروم الوصول في حلقته إليه.. يستمع قوله ويكتب علمه، فقال الحجاج: هذا والله السؤدد![1]

---

(١) جامع بيان العلم جـ١/ ٧٤، ٧٥.

وهذه الأخلاق القوية هي التي جعلت مثل الشيخ المراغي يقول عن الحرب العالمية الثانية: إنها حرب لا ناقة للمسلمين فيها ولا جمل... فيثير ثائرة الإنجليز وأعوانهم ويزلزلهم زلزالا!

وجعلت الشيخ عبد المجيد سليم يقول كلمته التاريخية متعجبًا ومعجبًا: تقتير هنا وإسراف هناك!.

ولما لوح له بعضهم بالعزل قال: أيمنعني ذلك من التردد بين بيتى والمسجد؟! قيل: لا. قال: فلا أبالي بعد ذلك بما يكون.

وهي التي جعلت الشيخ محمد الخضر حسين يقول كلمته المشهورة: إن لم يزد الأزهر في عهدي فلا ينقص منه!.

٤- الدعوة والحركة في المجتمع:

المقوم الرابع هو: الدعوة الدائبة، والحركة الدائمة، لهداية الحائرين، وإنقاذ الضائعين، وتنبيه الغافلين، فلا يجوز لعلماء الأزهر أن يعيشوا في عزلة عن المجتمع، وهم قلبه النابض، ولسانه الناطق، أو يتصلوا به اتصال الجار العادي بالجار، وهم أصحاب الدعوة الربانية، وحملة الرسالة المحمدية.

يجب عليهم أن يعيدوا عهد أسلافهم من العلماء المعلمين، فقد كان عالم الأزهر من قبل مرشدًا دينيّاً، وموجهًا شعبيّاً، ورائدًا اجتماعيّاً، ومربيًا روحيّاً، وقائدًا سياسيّاً.

كان يعيش في قومه «مولّد نور» يربي الصغير، ويعلم الكبير، ويجيب من سأل، ويفتي من استفتى، ويؤم المصلين، ويصلح بين المتخاصمين، ويؤدب المقصرين، ويذكر الغافلين، ويهدد الظالمين، وينصر المظلومين.. يهش لمن يحضر، ويسأل عمن يغيب، ويعود من يمرض، ويعقد عقد من يتزوج، ويؤذن في أذن من يولد، ويصلي صلاة الجنازة على من يموت!.

فهو فيهم كالأب في أسرته وأولاده، ينصح لهم ويسمعون، ويأمرهم ويطيعون. يحبهم ويحبونه، يفرحون به إذا حضر، ويتشرفون إليه إذا غاب، ويحزنون عليه إذا أصيب، ويعيشون في ذكراه وسيرته إذا مات.

• إذا غاب الأزهر:

أما إذا غاب الأزهر عن الساحة، فإنها لن تبقى خالية، سيأتي من يشغلها، فالحياة الإنسانية لا تقبل الفراغ، فإذا لم تملأها بالحق ملأها الشيطان بالباطل.

فإذا صمت الأزهر عن كلمة الصدق، فسيتكلم دعاة الزور، وإذا قصر أو تخلى عن دعوته، فثمت من يعمل ليل نهار.

ومن للناس إذا فرط الأزهر أو غاب الأزهر، وهو الإمام والأسوة؟ وقد قال الشاعر:

بالملح يصلح ما يخشى تَغَيُّره فكيف بالملح إن حَلَّت به الغِيَرُ؟!

في غيبة الأزهر وعلمائه عن ساحة الدعوة سيتيح الفرصة لألوان ثلاثة من التفكير، كل لون منها يوجه شريحة كبيرة من المجتمع.

١- ظهور التفكير المادي:

اللون الأول: التفكير المادي الزاحف من الشرق في ثوب شيوعي يساري، أو من الغرب في شكل يميني رأسمالي، وأيا كان مصدره، ففي طيه الشك الذي يزلزل العقيدة، أو العلمانية التي ترفض الشريعة، أو التحلل الذي ينكر الفضيلة. وفي هذا الضرر كل الضرر على جميع المقدسات من العقائد والشعائر والتقاليد والأخلاق ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً**﴾ [النساء: ١٣٦].

وأكثر ما يشيع هذا التفكير بين رضعاء الثقافة الغربية، وخريجي المدارس الأجنبية والتبشيرية، ودُعاة الأفكار الهدامة، والمذاهب المستوردة، والمفتونين العصريين من عُبَّاد أوروبا وأمريكا وروسيا.

٢- التفكير المخرف:

واللون الثانى: التفكير الديني الخرافي، وفي طيه الأوهام والخرافات، والبدع والضلالات، وأكثر ما يشيع هذا بين العامة من الفلاحين والعمال، وأشباه العامة من أنصاف المتعلمين، وبعض المخدوعين والمسحورين من المثقفين، وقادة هذا التفكير هم المبتدعة من الدراويش

ومشايخ الطرق، وأدعـياء التصوف، والذين ينتشرون في البـلاد انتشار «الإنكلستوما والبلهارسيا» يفعلون في إضعاف الأفكار والنفوس أكثر مما تفعل الأمراض المتوطنة في إضعاف الأجساد.

ذكرهم رقص وزمـر، وعلمهم تخريف وجهل، وكـراماتهم تضليل وإفك، يعطون العهود لأخذ النقود، وينشئون «الموالد» لكسب «العوائد» ويقيمون الليالي لملء البطون.

وقـالوا سكرنا بـحب الإله وما أسكر القـوم إلا القصع!

ولسنا بهذا نطعن في التصوف السني السليم، الملتزم بالكتاب والسنة ومنهاج السلف في العلم والـتربية والسلوك، وهو التصـوف الذي يقوم على تصحيح النية، وتجريد التوحيد، وموافقة السنة، واحترام الشريعة، والرجوع إلى أهل الـعلم في النوازل والملمات، والتـوقف عند عروض الشبهات، ويُعْنَى بأمراض القلوب وعلاجها، وآفات الأنفس، ومداخل الشيـطان إليها، هذا الـتصوف لا ننكـره، إنما ننكر تصوف الأدعـياء، الذين اتخذوا من دين الله مصيدة لدنيا الناس!

٣- التفكير الديني المتطرف:

واللون الثالث: التـفكير الديني المتطرف: تفكيـر الغلاة والمتنطعين، الذين يريدون أن يُحَجِّروا ما وسع الله، وأن يعسروا ما يسر الدين، ولا يفرقـون بين الظنى والقطعي في الأدلة، ولا بين المحكم والمـتشابه في النصـوص، ولا بين الملزم وغـيـر الملزم في الأحكام، ولا بين العـوام

والخواص في الناس، ولا بين العزائم والرخص في الفتوى، فتراهم يطالبون الناس بالسنن كأنها فرائض، ويحاسبونهم على المكروهات كأنها محرمات، وينكرون المختلف فيه كأنه مجمع عليه.

وتراهم يسيئون الظن بالآخرين، كأنهم وحدهم الناجون ومن سواهم الهالكون، لا يلتمسون لأحد عذرًا، ولا ينظرون إلى الشيء إلا من جانبه الأسود.

لا يعرفون أدب الخلاف، ولا يقيمون وزنًا للرأي الآخر، كأنما شعارهم: رأينا صواب لا يحتمل الخطأ، ورأي المخالفين جميعًا خطأ لا يحتمل الصواب! على خلاف ما كان عليه السلف الذين اختلفت آراؤهم ولم تختلف قلوبهم، وصلى بعضهم وراء بعض، واعتبرت الأمة اختلافهم رحمة، وتنوع اجتهاداتهم مرونة وسعة، وكان هذا التعدد والتنوع ثروة ضخمة للأمة في فقهها وفتواها وقضائها.

****

الأزهر والنقد الذاتي

احتفل الأزهر، وشاركه العالم الإسلامي كله، بمرور ألف سنة شمسية على بنائه في قلب القاهرة مركزًا للتعليم والهداية.

ومن حق الأزهر أن يحتفل بعيده الألفي، وأن يقف رافع الرأس، شامخ الأنف بما قدم للإسلام والعربية طوال قرون عشرة، كان فيها جامعًا للعبادة، وجامعة للعلم، ومعهدا للتربية، وحصنا للدين، وقلعة للغة، وملاذا للشعب، وقِبْلة ثقافية لأمة الإسلام في كل مكان.

ومن حق المسلمين - بل من واجبهم - أن يحتفوا بالأزهر، وينوهوا بما قدمه لهم عبر تاريخه المديد من رعاية لأبنائهم الذين استقبلهم - من أنحاء الأرض - تلاميذ مبتدئين، وردهم علماء معلمين، ودعاة للحق، وهداة للخلق، وحراسًا للعقيدة، وحماة للشريعة، ورعاة للأخلاق.

وقد كتب في هذا كثيرون وكتبت معهم في «الكتاب التذكارى للأزهر» بهذه المناسبة، ولكني أريد للأزهر أن يقف اليوم مع نفسه وقفة أراها واجبة، وهي وقفة للتأمل والمراجعة ومحاسبة النفس رغبة في تلافى القصور واستكمال النقص، ومحاولة للوصول إلى الكمال المستطاع للبشر.

ومحاسبة النفس مبدأ إسلامى أصيل، له جذوره في القرآن والسنة وهدي السلف ويعبر عنه المحْدَثون بـ «النقـد الذاتي» وأولى الناس بتطبيق هذا المبدأ هو الأزهر. وسنحصر الحديث هنا عن الأزهر باعتباره معهدا وجامعة.

فـلابد من وقـفة مـتـأنيـة بعـد التوسع الأفـقي في فـتح المعـاهد والكليات.. وقفة يسأل الأزهر فيها نفسه: هل أدى هذا التوسع غرضه أوْ لا؟ هل الأولى توجيـه العناية إلى الكم أوْ إلى الكيف؟ هل المهم أن أخرج ألفًا ليس فيهم أكثر من عشرة من الدعاة القادرين الصادقين أم أن أخرج مـائة فيـها خـمسـون من هذا النوع؟ الأمر يـحتاج إلـى دراسة ومراجعة.. ثم لابد من وقفة لمراجـعة أمر القديم والجديد في الأزهر: ماذا يبقى من القديم، وماذا يأخذ من الجديد؟.

• انتقاء الطلاب:

وكثيرًا ما شكا المخلصون الواعون من علماء الأزهر من نوعية الذين يلتحـقون بمعاهد الأزهر ممن تضيق بهم المدارس الإعـدادية ونحوهم، فلا يجـدون ملجئـا إلا الأزهر.. حتى قال بعض العـلماء والأدباء من كثرة ما رأى من هبوط المستـوى، وسوء النتائج: أن الأزهر أصبح يقبل المتردية والنطيحة وما أكل السبع! فقلت له مستدركا: بل ما يعاف السبع أن يأكله!.

ولهذا كـان الانتقاء ضـرورة لا مَفَرَّ منهـا، فإذا كان الأزهر مـصنعا للدعاة، فليست كل خامة بشرية صالحة لأن يصنع منها داعية.

وإذا كان الأزهر بمثابة جيش الخلاص، فليس كل إنسان أهلا للتجنيد في هذا الجيش، لابد من شروط، ولابد من فرز وفحص، ولابد من فترة اختبار، يستمر فيها الصالح للجندية، ويعفى من ليس لها أهلاً.

ولقد سمعت من أستاذنا الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله -حين كان أستاذًا بكلية أصول الدين- محاضرة تحدث فيها عن كلية تبشيرية في إحدى الكنائس في فرنسا، زارها لأول مرة، فرأى فيها عجبًا، رأى طلابًا حلقت شعور رؤوسهم بالموسى إلا شريطًا ضئيلاً دائرًا حول الرأس، وحياهم فلم يردوا عليه التحية، وحاول محادثتهم فلم يجيبوه ببنت شفة! وعجب لهذه الظاهرة أشد العجب فسأل المدير عن سر هذا فأخبره: أنهم في فترة صمت طويل، يحرم عليهم فيه الكلام المعتاد حرمة تامة اختبارًا لأعصابهم، وامتحانًا لإرادتهم وسلوكهم في هذه الفترة. وأخبره المدير أن فترة الامتحان ستة أشهر، تنتهى بغربلة وتصفية لا يبقى بعدها إلا الصالحون للتبشير بالمسيحية في الأرض!!.

هكذا يشدد القوم فيمن يعدونهم للتبشير بدينهم، فما بالنا نحن نأخذ كل من هب ودب، دون انتقاء ولا تمييز؟!.

وبعد هذا الانتقاء لا بد من رعاية وتربية طويلة الأمد، عميقة الجذور، لا تجعل مجرد حفظ المعلومات، وتحصيل المعرفة غاية في نفسه، فمن حصلها وأفرغها في ورقة الإجابة عند الامتحان، فهو الطالب الناجح، بل المتفوق المتألق.

والحق أننا نريد مسلمًا متكامل الشخصية، له عقل المسلم المتفقه، وله قلب المسلم التقى، وله خلق المسلم الملتزم، وله حكمة المسلم الداعية، وعنده إيجابية المسلم المجاهد، ولديه ثقافة المسلم المعاصر.

وهذا يقتضي إعداد برامج تثقيفية وتربوية متنوعة ومتكاملة، ترعى أبناء الأزهر، وتستبقي العناصر الطيبة منهم، وترتقي بهم في مدارج السمو الإسلامي المنشود، وتطرد العناصر الخبيثة أو الضعيفة التي لا تصلح لحمل الرسالة.

فلا يجوز أن يبقى في الأزهر من يفرّط في أداء الصلوات المفروضة، أو يعرف بسوء السيرة، أو يؤخذ عليه شذوذ في الطبع، وعوج في السلوك، يجعله بغيضا إلى الناس.. إلى غير ذلك من النقائص العقلية أو النفسية أو الخلقية التي يعاب بها من يحمل رسالة هداية إلى الناس.

وإذا عجز الأزهر عن تنفيذ ذلك في معاهده وكلياته عامة، وكليات الدعوة خاصة، فإنه أشبه بمن يخوض معركة بجنود مصابين بالعاهات، ضعفاء في التسليح، قاصرين في التدريب، في مقابل جند قوى الإعداد، كامل التسليح، مستكمل التدريب، فلا تكافؤ ولا تقارب، فكيف تكون النتائج؟!.

• انتقاء الأساتذة:

وإذا كان انتقاء الطلاب للأزهر واجبًا، فأوجب منه انتقاء أساتذته، الذين يتخرج الطلاب في حضانتهم، ويتلقون عنهم العلم والعمل، والفكر والسلوك.

وإنما نجح الأزهر قديما، لأن الله هيأ له شيوخًا كانوا علماء ومربين معًا، كان طالبهم يأخذ منهم العلم لعقله، والخشية لقلبه، والتقوى لسلوكه، والزهد لمعيشته، والورع لتعامله. وكانت علاقته بطلابه علاقة المعلم بتلاميذه من الناحية العلمية، والشيخ بمريديه من الناحية الروحية، والأب بأبنائه من الناحية العاطفية.

هؤلاء الربانيون الذين عَلِموا وعملوا وعلَّموا هم الذين صنعوا الأزهر القديم، وبمثلهم يرتجى أن يصنع الأزهر الحديث.

أما الذين غزت عقولهم الشكوك والشبهات، أو لوثت قلوبهم الأهواء والشهوات، فلا يصلحون بحال أن يكونوا من هيئة تدريس الأزهر، لأن المعلم المرتاب لن يمنح تلميذه يقينًا، والمعلم المدخول السلوك لن تؤخذ منه أسوة حسنة، ففاقد الشيء لا يعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه. ولن يستقيم الظل والعود أعوج!.

وهذا ينطبق على مدرسي المعاهد، وأساتذة الكليات جميعًا.

فإذا كانت الجامعة تتعامل مع الطالب في مرحلة نضوجه، فإن المعاهد تتعامل معه في مرحلة تأسيسه، وكلتا المرحلتين لها أهميتها وخطرها.

وهذا ينطبق كذلك على أساتذة المواد الأصلية من علوم الدين والعربية، وعلى معلمي المواد الأخرى التي يسمونها «الحديثة» وما هي بحديثة، فهي علوم أتقنها المسلمون وتفوقوا فيها، وكانوا معلمي

العالم لها عدة قرون، وكانت كتبهم -المؤلفة بالعربية- مراجع معتمدة للعالم كله.

ولا يجوز أن يدخل على الطالب مدرس للطبيعة أو الأحياء أو الجيولوجيا، ليهدم ما يقوله معلم التفسير أو الحديث أو الفقه.

فهذا لا ينتج إلا البلبلة، واضطراب الفكر والشخصية لدى الطالب.. أو انهزام الفكر الديني أمام الفكر الآخر، إذا كان مدرس المواد الحديثة ألحن بحجته، وأقدر على الإقناع والإفهام من صاحبه الذي يتكلم بلغة غير لغة العصر.

وما قلناه في شأن مدرسى «العلوم الحديثة» في معاهد الأزهر، نقوله في شأن مدرسي الكليات الحديثة في جامعة الأزهر (الطب والصيدلة والهندسة والزراعة والتجارة ونحوها).

فلا يجوز أن يقبل أو يبقى في هذه الكليات من يجهل رسالة الإسلام وشمولها، وتوازنها وعمقها وتفوقها على كل الديانات والفلسفات، ولا من يرتاب في ذلك، بله من ينكر هذه الرسالة ويرفضها، ومثله من يقدم من سلوكه مثلاً سيئًا لطلابه، كالذي يترك الصلاة، أو التي تخلع الحجاب، بدعوى أن هذه حرية شخصية، فالإسلام لا يفرق بين السلوك الشخصي المعلن وبين الجانب الاجتماعي في تقويم الناس، وترشيحهم للمناصب والأعمال. والحق أن باب الأزهر يجب أن يغلق في وجه كل رجل يستهين بأمر الصلاة، أو امرأة

تستهين بأمر الحجاب، ولا نَنْسى هنا أن هذه الكليات في القاهرة أصبحت أكثر عددًا من الكليات الأصلية، وفيها من الطلاب عدد أوفر، وفيهم عدد غير قليل ممن يملكون من التفوق العلمى، والاستقرار النفسي، والتمكن الاجتماعي، ما يؤهلهم للقيام بدور قياديّ مرموق لخدمة الإسلام ودعوته وأمته.

وقد لاحظت خلال السنوات الأخيرة -أن جل الطلاب الذين يقومون بدور بارز في نشاط الجماعات الإسلامية في جامعة الأزهر - وفي غيرها أيضًا- من طلاب الكليات العلمية هذه. لهذا كانت العناية بها لازمة، لإبراز طابعها الإسلامي علمًا وعملاً، حتى لا تكون مجرد نسخة مكررة من زميلاتها في الجامعات الأخرى.

• أهمية الجامعة:

يجب أن ينتهي اللغط حول تطوير الأزهر، فهو -أيا كانت دوافعه- قد فتح للأزهر أبوابًا جديدة للعمل، وهيأ له جامعة ضخمة يمكنها أن تؤدي رسالة كبرى لمصر وللإسلام وللعالم، إذا أحسن الأزهر الاستفادة منها، وأزال الازدواج من داخلها. فالواقع أنها جامعتان في جامعة، جامعة قديمة للمشايخ، وجامعة حديثة للمدنيين أو الأفندية! حتى إن لكل واحدة منهما موقعها ومكانها اللائق بها. فواحدة في حي الأزهر القديم: الدراسة. وأخرى في امتداد القاهرة الجديد: في مدينة نصر.

والمقررات الدينية التي تدرس في الكليـات الحديثة: الطب والهندسة والزراعة والصيدلة ونحوها -مقررات لا تكفي- في مجموعها - لتهيئة داعية مسلم، طبيب أو مهندس.. إلخ، كما هو الشأن في دعاة الأديان الأخرى. ولا تؤدي مـا يراد من مثلهـا من تكوين (عقلٍ مسـلم) يفهم فلسفـة الإسلام ووجهـة نظره في القضـايا الكبرى عامـة وفيمـا يتصل بتخصصه ومجال دراسته خاصة.

ولقد طلـب إليَّ أحد مديري جـامعـة الأزهر بعد بحث ومناقـشة معـه: أن أكتب صفـحات مـوجزة مركـزة عما يجب أن تـكون عليه المقررات الإسـلامية فـي الكليات الحديثـة في الأزهر، وألح عليَّ في ذلك، ولكني ترددت في الاستـجابة قائلاً له: إنني أعتـقد أن نصيب مثل هذه الورقات أن تضيع فـي الأدراج بين الأوراق الكثيرة الأخرى! إلا أنه أكد لي أنهـا ستكون مـوضع الـدراسة والاعتـبار.. وكـتبتـها وسلمتها، وكان مصيرها ما توقعته: اختنقت هناك حيث حبست بعيداً عن الضياء والهواء!

وتالله إنه لحـرام: أن تضـاف هذه الكليـات إلى الأزهر، ويقـال إن الهدف منهـا تخريج مـسلم متخـصص قادر على الدعـوة إلى الإسلام بأسلوب العـصر، ثم لا يـدرس من الإسـلام إلا قشـوراً لا تنقع غلة، ولا تشفي علة، وكثيـراً ما يـراد مـنها تـوزيع أكـبـر عـدد مـن الأوراق أو المذكرات المطبوعة على أكبـر عدد من الطلاب! المهم ما يعود بالربح على الأستاذ، لا ما يعود بالفائدة على الطالب

إلا أن من الضـــرورى إعادة النظر في هذه القـضيـة، وإعطاءها من الاهتمام ما تستحقه.

ومن الضروري كـذلك؛ إذابة الفوارق بين أبناء الجـامعـة الواحدة، وصهر الجميع في بوتقة الأزهر الواحـد. وهذا يقتضى أن يكون الجميع في مكان واحد، يلتقي فـيه الأساتذة والطلاب في نشاطات مشـتركة، ويتبادلون فيها الأخذ والعطاء، والتأثر والتأثير.

• مراجعة المناهج:

مما يجب مراجـعته والنظر فيـه: مناهج الأزهر ومقرراته الدراسـية. ففي الأزهر قديم وجديد، وكلاهما يحتاج إلى إصلاح وتسديد.

أما القـديم في مناهج الأزهر ومقـرراته، فقد بقي على قـدمه، لم يطرأ عليه تغيير يذكر رغم ما سموه: «تطوير الأزهر».

ويبدو أن خوف مشايخنا من عواقب التطوير وآثاره، جعلهم يعضون بالنواجـذ على القـديم الذي تميـزوا به حـتى لا يضـيع، فتـركـه لهم «المطورون» كما هو.

• علم التوحيد:

خذ مثلاً: علم التوحيد والعقائد. وانظر معي نظرة علمية موضوعية محايدة في مناهجه وكتبه: ترى هـل مناهج التوحيد وكتبه في الأزهر،

قادرة على تثبيت العقيدة لدى المسلم، أو الدفاع عنها أمام الملحد أو المتشكك؟

إن كثيراً من القضايا التي تثيرها، والأدلة التي تقدمها. لم يعد مما يهم العقل المعاصر. وكثير منها يعتبر من رواسب الجدل التاريخي بين الفرق بعضها وبعض، ومن مخلّفات العقل اليوناني ومن تأثر به إيجابًا وسلبًا. وأولى من ذلك دراسة التوحيد من بينات القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية، وما فيهما من براهين، بعيداً عن اللعب بالألفاظ والإغراق في المجادلات، وهو ما ألف فيه العلامة اليمني ابن الوزير كتابه القيم «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان».

وأسجل هنا تجربة ذكرها شيخنا الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله في كتابه: «أوروبا والإسلام» قال:

«منذ سنوات جاء أحد الأمريكان ليمكث في مصر فترة من الزمن يتعلم فيها الإسلام، واتصل بالهيئات التي تمثل الإسلام، فبلغت الحيرة منتهاها حينما أرادت هذه الهيئات اختيار كتاب يتعلم من خلاله الإسلام».

ومن الطبيعي أن يتجه الذهن إلى كتب علم الكلام، فهي كتب الدفاع عن العقيدة.. ولكن إذا نظرنا في كتب علم الكلام نجد أنها جدال ينتهي بين الذين يبحثون فيه، بالزيغ، وابتغاء الفتنة، والجدال فيها يبدأ ويعاد ولا ينتهي.

ثم هي تصور -على الخصوص- المستوى الثقافي للعصور الوسطى، ولا تمت بصلة إلى الأبحاث الحديثة. ومن الطبيعي أن تكون كذلك لأنها ألفت في العصور الماضية، وما أُلّف منها حديثًا، أُلف على نمطها اتباعًا للآباء والأجداد، وبغضا للخروج عن المألوف.

وإذا لم نأخذ الدين من كتب علم الكلام، فهل نأخذه من كتب التفسير؟!

لقد انتهى تفسير القرآن إلى أن أصبح مسرحًا يتبارى فيه النحويون واللغويون وبلاغيو العصور المتأخرة، وغشت هذه النواحي على الهداية لما أنزل الكتاب من أجله أي الهداية للأقوام. انتهى.

لقد درست التوحيد في الأزهر خلال دراستي في المعاهد الابتدائية والثانوية وكلية أصول الدين.. درسته في مذكرات ألفها أساتذتنا.. ودرسته في كتب خلفها السابقون، مثل شرح الجوهرة للقانى.

ثم درسته بعد في العقائد النسفية، وشرحها للسعد التفتازانى، وحاشية على الشرح للخيالي، وأخرى للعصام، وحاشية على الحاشية لعبد الحكيم السيالكوتي.

وكانت رياضة ذهنية ممتعة حقّاً، ونحن نحلل الألفاظ، ونناقش عبارات والأفكار، وننتقل بين المتن والشرح والحواشي الثلاثة في صفحة واحدة. وكثيرًا ما كنا نبقى فى مناقشة الجملة أو الفقرة

القصيرة أيامًا أو أسابيع حتى نهضمها، وأذكر أن الفقرة الأولى من العقائد «قال أهل الحق: حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقق خلافًا للسوفسطائية» أخذت منا أسابيع حتى انتهينا منها!! وكان الذي يشرحها لنا: أستاذنا الشيخ: محمد بيصار، قبل أن يسافر إلى لندن للحصول على الدكتوراه.

ولكن هل استخدمنا هذا في تعليم العقيدة الإسلامية للناس؟ أو حتى في الدفاع عنها أمام ملاحدة العصر؟؟

أعتقد أن الجواب بالنفي.

ذلك أن لكل عصر مشكلاته العقلية التي يهتم بها، وله أدواته في فهمها وعرضها، وله أسلوبه في معالجتها.

وقد اهتم المتقدمون من علمائنا بقضايا عصرهم التي شغلتهم، وعالجوها بمنطقهم، ولغة زمانهم.

فلماذا لا نهتم نحن بقضايا زمننا، ومشكلات عصرنا؟ ولماذا لا نعالجها بأسلوبنا ولغة حياتنا؟

لقد ألف ابن حزم «الفصل في الملل والنحل» وألف الشهرستاني كتابه «الملل والنحل» وألف ابن تيمية «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

واليوم ينبغي أن نعرف ملل العصر ونحله، ينبغي أن نعرف ديانات العصر الكبرى الكتابية (كاليهودية والنصرانية) والوضعية (كالهندوسية

والبوذية) ونعرف المذاهب الأيديولوجية الكبرى مثل الماركسية والرأسمالية. ونعرف الفلسفات المعاصرة: كالوجودية والعدمية وغيرها.

على أن علم التوحيد -أو علم الكلام كما كان يسمى- إنما نشأ ونما للدفاع عن العقيدة ضد مطاعن الزنادقة، وشبهات المبتدعين، وأقاويل الفلاسفة باستخدام سلاحهم نفسه. ولم يقصد منه أن يتخذ لإثبات العقائد وتقريرها.

لقد تعبنا في فهم مشكلة «الذات والصفات»: هل صفات الله تعالى عين ذاته سبحانه أم هي غير ذاته تعالى؟ أم هي لا عين ولا غير؟ خلاف بين المعتزلة والأشاعرة وغيرهم. طال فيه الجدل، وحمى فيه الوطيس، وشغل به العقل الإسلامي قديمًا، وشغلنا معه حديثا، دون جدوى..

وقد تفرع عن هذه المشكلة مشكلة أخرى أدهى وأمر، هي مشكلة القول بـ «خلق القرآن» وما أثارته من جدل، وما هيجته من فتن، وما سببته من محن، كانت الأمة في غنى عنها: هل القرآن الكريم قديم أو مخلوق؟ وإذا كان قديمًا فكيف يكون مع الله قديم؟ وإذا كان مخلوقًا، فكيف وهو كلام الله؟

وكان أولى من ذلك أخذ العقائد في شأن الألوهية بالتسليم من الوحى، دون بحث في معرفة الكنه، فنحن لم نعرف حقيقة حياتنا: حقيقة أنفسنا بعد! ولا زال الإنسان - في نظر كبار علماء الكون إلى يوم - ذلك المجهول.

ومثل ذلك العلاقة بين الإرادة الإلهية والإرادة البشرية، وهي مشكلة القدر أو الجبر والاختيار، وماذا لله تعالى؟ وماذا للإنسان؟ وهي مسألة حيرت الفلاسفة من قبل، وستحيرهم من بعد.

إن هذا البحر الخضم من الجدل والبحث المتعمق في الجانب الإلهى، قد سبح فيه المتكلمون من كل الفرق حتى كلوا، وغاصوا حتى عيوا وملوا، ولم يحصلوا في النهاية على شيء ذي بال، يستطيعون أن يهدوا به كافرا إلى إسلام، أو حائرًا إلى إيمان، أو شاكا إلى يقين، أو يزيدوا به مؤمنًا إيمانًا ومهتديًا هدى.

بل لم يستطيعوا أن يحصلوا لأنفسهم على ما يثلج به الصدر، ويطمئن به القلب حتى تمنى بعضهم في آخر عمره إيمانًا كإيمان العجائز!

• علم الفقه:

ومما ينبغي إعادة النظر فيه: علم الفقه، وهو العلم الذي يضبط حياة الفرد المسلم والجماعة المسلمة بأحكام الشرع، سواء منها ما يختص بالعلاقة بينه وبين الله تعالى، وهو ما ينظمه فقه العبادات، أم ما يتصل بالعلاقة بينه وبين أفراد أسرته وهو الزواج وما يترتب عليه، أو ما يسمى «الأحوال الشخصية» أم ما يتعلق بتنظيم المبادلات والعلاقات المدنية بين الناس بعضهم وبعض وهو ما يسمى «المعاملات» ويدخل فى القانون تحت اسم «القانون المدني» أم ما يتصل

بالجرائم والعقوبات وهو ما يسمى في الفقه «الحدود والقصاص والتعزير» ويدخل في القوانين تحت عنوان «التشريع الجنائي» أم ما يختص بالصلة بين الدولة والشعب أو بين الحاكم والمحكوم وهو ما يسمى «السياسة الشرعية» ويسمى عند القانونيين «القانون الدستوري» أو «الإداري»، وهناك أيضًا الجهاد والسير وهو ما يدخل تحت اسم «العلاقات الدولية».

وهذا العلم في حاجة إلى أن ينظر في مناهجه ومقرراته وكتبه، ليحقق هدفه في ضوء المبادئ التالية:

١- أن نصله بالواقع، ونربطه بالحياة. على معنى أن ندرس حكم الشرع في واقعنا لا في واقع من سبقونا، ونجيب عن الأسئلة التي يطرحها عصرنا، لا عن أسئلة طرحها من قبلنا، ولم يعد لها وجود، بيننا.

فلا يجوز أن يتخرج طالب في الأزهر لا يعرف زكاة الأسهم أو المصانع أو العمارات ونحوها. في حين يحفظ زكاة الإبل وما فيها من بنت مخاض وبنت لبون وحقة وجذعة، وليس في بلده إبل سائمة قط!

ولا يجوز أن يتعمق في دراسة كتاب «الرقيق والعتق» وما يتبعه من أبواب: المدبر وأم الولد والمكاتب ونحوها، وقد ألغي الرق الفردي كله، على حين يجهل أعمال المصارف (البنوك) وشركات المساهمة والتأمين ونحوها.

والأمثلة في هذا المجال كثيرة، وفيما ذكرناه ما يغني عن التطويل.

٢- أن ندرس الفقه مقرونا بأدلته النقلية، وتعليلاته العقلية، مربوطا بحكمة تشريعه، وأن ترد فيه الفروع إلى الأصول، والجزئيات إلى الكليات.

فالفقه الإسلامي - كما هو رأي جمهور الأمة - فقه منطقي معلل، لا يجمع بين مختلفين، ولا يفرق بين متماثلين. وهذا فيما عدا الأمور التعبدية المحضة. كما أنه يهدف دائمًا إلى تحقيق مصالح الخلق: الضرورية والحاجية والتحسينية، فربط أحكام الفقه بمقاصدها في غاية الأهمية. ودرء الشرور والمفاسد عنهم، أو تخفيفها وتقليلها إن لم يمكن درؤها. فربط أحكام الفقه بمقاصدها في غاية الأهمية.

٣- أن نكتبه بلغة يفهمها عصرنا، من حيث التقسيم والعرض والأسلوب، واستخدام المعارف العصرية في بيان أسراره، وتوضيح مقاصده. والاستفادة مما كتبه المتخصصون في مجالاتهم المختلفة، كالاستفادة مما كتبه أهل العلم والطب في أضرار الخمر، والخنزير، وما كتبه الاقتصاديون في بيان مضار الربا.. وغير ذلك.

ولا يعني هذا إهمال كتب التراث، بل لا بد من الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح.. والتدريب على قراءة التراث في الفقه وغيره جزء أساسى من مهمة الأزهر التعليمية.

٤- أن يتعلم طالب الأزهر أن اختلاف المذاهب والمدارس الفقهية، ليس اختلافًا بين حق وباطل، إنما هي وجهات نظر مختلفة، ناشئة عن

اجتهاد تعددت فيه المشارب، وتنوعت المدارس، وتباينت الأفكار، وهو اجتهاد يؤجر صاحبه عليه أصاب أم أخطأ. وهذا الاختلاف رحمة بالأمة، وسعة في الشريعة ومرونة في الفقه، وثروة فكرية وتشريعية لا يعرف قيمتها إلا من عايشها. وقديمًا قال علماؤنا: من لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم رائحة الفقه!.

٥- أن يكون الفقه مادة حية مرنة، تتسع لكل حاجات العصر، وتغيرات الحياة المتجددة.. وإذا كانت الشريعة -بنصوصها المحكمة، وقواعدها الكلية، وأحكامها القطعية- ثابتة لا تتغير، فإن الفقه - الذي يعكس فهمنا البشري لها، واستنباطنا الأحكام من أدلتها التفصيلية- يتغير بتغيرنا نحن البشر: زمانا ومكانا وحالا. ويجب أن يظهر هذا التغير إذا عرضناه في صورة تأليف أو فتوى أو قضاء. ففرق ما بين الشريعة والفقه: أن الشريعة وحي الله، والفقه جهد المسلمين.

وإذا كان كثير من الخلاف بين أبي حنيفة وصاحبيه: أبي يوسف ومحمد قيل فيه: إنه اختلاف عصر وزمان لا اختلاف حجة وبرهان، وأن الإمام لو رأى ما رأياه لقال بما قالاه - مع قرب الزمن بينهما - فكيف وبيننا وبين عصور الاجتهاد قرون وقرون؟

وكذلك كان للشافعي مذهبان: قديم قبل وصوله إلى مصر، وجديد بعد استقراره في مصر، وقد رأى فيها ما لم يكن رأى، وسمع ما لم يكن سمع، فغير اجتهاده في كثير من الأمور، وأصبح مألوفا أن يقال: قال في القديم، وقال في الجديد.

هذا وقد ظلت الحياة في عصورهم ساكنة لا يكاد يتغير لاحقها عن سابقها، إلا قليلاً، فكيف وعصرنا الحديث قد تغيرت فيه شئون الحياة عما كانت عليه، تغيرا كبيرًا وسريعًا، امتد طولاً وعرضًا وعمقًا، وشمل شئون الفرد والأسرة والمجتمع في أموره الاقتصادية والسياسية والإدارية والدستورية وعلاقاته الدولية. ولو افترضنا أحدًا من أهل القرون الماضية - بل من أهل القرن الماضي فقط، بعث من قبره، ورأى ما نحن عليه اليوم، لأنكر كل شيء في حياة الناس، ولاتهم نفسه بالجنون، أو اتهم الناس كلهم بالجنون.

وهذا التغير الجذري يقتضي فقها جديدًا، واجتهادًا جديدًا، يتحرك بحركة الحياة، ولكن لا ينزلق معها.. بل يضبطها بشرع الله.

• قضية القديم والجديد:

أما قضية القديم والجديد في الأزهر. فالحق أنها على جانب كبير من الأهمية، وهي في حاجة إلى إعادة نظر، فليس كل قديم نافعًا، وليس كل جديد مرفوضًا، على أن الأزهر لا يدرس أفضل القديم. إنما يدرس في الغالب قديم العصور المتأخرة. وكم في العصور الزاهرة ما هو أخصب مضمونًا وأسلس أسلوبًا.

ومن هنا لابد من إبقاء القديم في الأزهر، ولكن بعد أن نحسن اختياره من أفضل ما عندنا، من حيث العمق والوضوح والتنوع. على

أن يعلِّم الأزهر أبناءه كيف يقرأون القديم قراءة فهم ووعي تصلهم بالأمس، ولا تعزلهم عن اليوم، وبغير هذا يفقد الأزهر نفسه وهويته، فالمعاصرة لا تعني إلغاء القديم كل قديم، كما أن الأصالة لا تعني رفض الجديد أي جديد.

فليكن موقفنا وسطًا بين دعاة «الجمود» الذين ينادون بأن يبقى كل قديم على قدمه، وإن لم يوجبه شرع، ولم تقتضه مصلحة.. وبين دعاة «التحديث» الذين يريدون نسف القديم كله، لإنشاء أزهر حديث ليس له من الأزهر إلا اسمه!.

وإني لأخشى -إن فقدنا التوازن بين القديم والجديد- أن ينبت الأزهر خريجًا هجينا لا يحسن قراءة التراث، كما لا يحسن قراءة العصر، فلا يعترف به التراثيون لأنه لم يفهم لغتهم، ولا يقر له العصريون، لأنه لم يهضم علمهم.

الأزهر الذي نريده هو الذي يجمع بين أنفس القديم، وأنفع الحديث، فقدمه راسخة في القرون الهجرية الأولى، ورأسه تناطح القرن الخامس عشر.

وأما الجديد في مناهج الأزهر، فقد نقل نقلا حرفيّاً. إما من وزارة التربية والتعليم، وإما من الجامعات المدنية. ومعلوم أن المناهج في هذه وتلك مثقلة من قديم بالآفات والثغرات، منذ عهد الاستعمار وتسلطه ونفوذه، ولم تستطع أن تتخلص من كثير منها إلى اليوم، فكان يحسن

بالأزهر ألا ينقلها بعجرها وبجرها وحلوها ومـرها، وأن يعمل فيها يد التهـذيب والحذف والانتقـاء، فيأخـذ منها ويدع وفق روحـه وأهدافه، ويضيف إليها ويهذب فيها تبعًا لما تقتضيه رسالته العظمى.

وأخوف ما أخاف على الأزهر وعلى جامعة الأزهر: الاقتصار على «المذكـرات» التي توضع فيـها المعلومـات لخدمـة «الامتحـانات» أي توضح المعارف في صورة «برشـام» كالذي يصنعه الطلبة المتـمرسون بالغش، وفـرق بين «بـرشـام» الطالب و«برشـام الأسـتـاذ» أن ذاك ملفـوف، وهذا منشور! وأن (برشـام) الطالب محظور، و(بـرشام) الأستاذ مسموح به!!

لا بد من الاجتهاد والجهاد لوضع المناهج والكتب الملائمة لها.

لابد للأزهر إذن أن يراجع قضية القديم والجديد فيه برمتها، إذا أراد أن يؤدي رسالته الكبرى للمسلمين في قرنهم الجديد.

ولن يكون الأزهر أزهر إذا كـانت معاهده صـورة من مدارس وزارة التعليم، وكانت كلياته نسخة من كليات الجامعات المدنية.

إنما يكون الأزهر أزهر حقّاً إذا أخذ بأحـسن ما في القديم، وأفضل ما في الجديد، وشق طريقه العلمي في قوة واستـقامة، متحررًا من كل تبعية، مستقلاً عن غيره من الجامعات التي ليس لها مثل رسالته.

يكون الأزهر أزهر إذا خرجت كلياته الأصلية أجيالاً قادرة على فهم التراث وإفهامه غير معزولة عن الحياة المعاصرة.

وخرجت كلياته الجديدة أجيالاً قادرة على فهم العلوم المعاصرة من منطلق إسلامي، وفي إطار إسلامي، ولهدف إسلامي.

يكون الأزهر أزهر إذا استطاع أن ينشئ في العلوم الإنسانية والاجتماعية مدارس فكرية إسلامية مستقلة، غير تابعة للشرق ولا للغرب، ولا خاضعة لتأثير اليمين أو اليسار، تستمد فلسفتها من أصول الإسلام وينابيعه الصافية، بعيدًا عن غلو المتطرفين، وتحلل المقصرين.

نريد «المدرسة الإسلامية» في «الاقتصاد»، المتحررة من تأثير المدرسة الكلاسيكية والمدرسة الماركسية، وما بينهما، وإن انتفعت بها كلها وبوسائلها في البحث والتحليل. وبهذا تتميز (كلية التجارة) في جامعة الأزهر.

نريد «المدرسة الإسلامية» في «علم الاجتماع»، التي تدرس الظواهر الاجتماعية وتحللها من منطلق إسلامي خالص، وفي إطار إسلامي مأمون، لا يستعبدها فكر اليمين في المدرسة الفرنسية أو الأمريكية، ولا فكر اليسار في المدرسة الماركسية، ولا يقف جهدها عند ما يسمى «الاجتماع الديني». ولا عند التغني بابن خلدون ومقدمته العظيمة. بل تصنع (خلدونيين) معاصرين، يصلون الأمس باليوم.

نريد المدرسة الإسلامية في الفلسفة، التي تبني فلسفة إسلامية أصيلة، تنطلق من محكمات القرآن لا من فلسفة الإغريق، وتتخذ

(معلمها الأول) محمدًا رسول الله ﷺ، وليس أرسطوطاليس، ولا أفلوطين، وتنظر إلى أصول الإسلام وقيمه متحررة من التبعية لشرق أو غرب، أو زيد أو عمرو من ذوي الأسماء الرنانة.

لا نريد أن نشغل العقل الإسلامي المعاصر كثيرًا بالمحاولات (التوفيقية) التي جهد فيها الفارابي وابن سينا ومن تبعهم للملاءمة بين الدين والفلسفة، أو بين الشريعة والحكمة، كما قال ابن رشد، ولا نريد له أن يظل دائرًا حول (التهافت) و(تهافت التهافت) ولا أن نضيف إليهما تهافتا ثالثًا.

ولا نريد أن نغرق فيما غرق فيه صاحب (التهافت) الإمام الغزالى الذي قال فيه تليمذه الإمام ابن العربي: شيخنا أبو حامد دخل بطون الفلاسفة ولم يخرج منها!

إن المحاولات التوفيقية لمن عرفوا في تاريخ الفكر باسم (فلاسفة الإسلام) قد أثبتت عدم جدواها وخصوصًا في الجانب الإلهى من التفكير الإسلامي كما سماه أستاذنا الدكتور محمد البهي، رحمه الله فلم يكن معقولاً أن تتوافق الوثنية اليونانية، والتوحيد الإسلامي، ولم يكن معقولاً أن يؤول وحي الله المعصوم، ليوافق شطحات العقل الإغريقي فى تصوراته الخرافية، عن الكون والأفلاك، والعقول العشرة، والإله الذي لا يعلم إلا ذاته، كما قال أرسطو، والذي قال عنه «ول ديورانت»: يا لإله أرسطو من إله مسكين! إنه كملك الإنجليز، يملك ولا يحكم!

ولعل إله أرسطو أسعد حالاً من إله أفلاطون - فقد بلغ به التجريد عنده أنه لا يعلم شيئًا حتى ذاته نفسها!!

وإذا كانت المحاولات التوفيقية قد أخفقت، فأحق منها بالإخفاق والخيبة المحاولات (التلفيقية) التي قام بها جماعة إخوان الصفا!

وأولى بالفكر المسلم المعاصر أن يستقي فلسفة الإسلام من ينابيعه الصافية، قرآنه وسنة نبيه، ومن فهم الراشدين من خلفائه، ومن علم المحققين من علمائه، وبخاصة علماء الأصول منهم، كما نبه على ذلك الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله.

إن مهمة أي فلسفة إسلامية حقيقية اليوم ألا تعيش على اجترار القديم، ولا تحاول تقليد الحديث. وألا تحبس نفسها داخل أسوار مدرسة فلسفية أو كلامية أو تفسيرية معينة، بل ترجع إلى الأصول والمنابع، لتقدم الإسلام سليمًا بلا حشو، شاملاً بلا تجزئة، خالصًا بلا شركة، مبينًا بلا غبش، تغوص في أسراره، وتكشف عن خصائصه ومقوماته، وتميط اللثام عن أهدافه الكبرى، وقيمه العليا، وتحكي نظرته إلى الكون، ومكونه الأعلى، وفكرته عن الإنسان بمادته وروحه، وعقله وقلبه.. ووجهته المتوازنة في علاقة الفرد بالمجتمع، وارتباط الحياة الأولى بالحياة الآخرة.

ومن خلال هذا المنظور الإسلامى المتميز تدرس فلسفات الشرق والغرب، الدينية والبشرية، المثالية والواقعية، القديمة والوسطية، والحديثة والمعاصرة، ويحكم لها أو عليها، دون انفراط ولا انغلاق، ولا طغيان ولا إخسار: ﴿**أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**﴾ [الرحمن: ٨، ٩].

نريد المدرسة الإسلامية في «علم النفس» فتستخدم كل الأدوات التي تملكها المدرسة النفسية الحديثة، من خلال نظرة إسلامية مستقلة إلى الإنسان كله: جسمًا وروحًا وإدراكًا ونزوعًا وانفعالاً.. مستفيدة من مدرسة «التحليل النفسي» وغيرها دون خضوع مطلق، ولا تعصب مغلق، أمام مقرراتها.

نريد «المدرسة الإسلامية» المستقلة في التاريخ، وفي التربية، وفي الأخلاق وفي السياسة، وفي غيرها من المجالات.

وبهذا نحقق ذاتنا، ونملأ موقعنا، ونتبوأ مكانتنا، ونعبر عن أصالتنا، ونعطي لاستقلالنا معنى، ولوجودنا رسالة، ونصل حاضرنا بماضينا، وتصبح أمة «الألف مليون» جديرة بقول ربها، ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ [البقرة: ١٤٣].

وليس صحيحًا ما يقال: إن هذه العلوم - وإن كان الغرب مصدرها - فهي عالمية الصبغة، موضوعية النتائج، لا تنتسب لغرب ولا شرق، ولا تنتمى لإيمان ولا إلحاد.

ففي هذا الكلام تساهل وتجاوز إلى حد المغالطة، فالواقع أن العقائد «الأيديولوجية» تلعب دورها في تكييف هذه العلوم واستخدامها والاستنباط منها.

ولهذا نرى الماركسيين مخالفين على طول الخط للمنطلقات الرأسمالية والغربية لهذه العلوم وغاياتها، وكثير من نتائجها. بخلاف العلوم المادية وتطبيقاتها «التكنولوجية» فهم شبه متفقين عليها. إذ الأصل أنها محايدة ليس لها لون.. ولا دين.. ولا نسب معين.

ولكن فلسفة العلوم المادية أو الكونية، وطريقة عرضها وصياغتها، تختلف من بيئة لأخرى. وهذا ما ينبغي أن يتنبه له الأزهر خاصة، والجامعات عامة.

يجب أن تدرس العلوم الكونية في ظلال الإيمان بالله تعالى، وأن تعطي لمسات ربانية تنزع عنها ثوب «المادية» الجحود، الذي ألبسته إياها أوروبا في عهد هربها من الدين، ومعاداتها لرجاله.

وأن تعرض القوانين العلمية على أنها «سنن الله في كونه» وأن الظواهر الكونية كلها من تدبير الله سبحانه، لا من صنع الطبيعة، كما يقال.. وأن الوحدة المبثوثة في المخلوقات التي نشاهدها دليل على وحدانية الخالق الذي أنشأها وسواها.

كما يجب أن تدرس العلوم في جامعة الأزهر باللغة العربية، التي كتب بها ابن الهيثم والخوارزمي والرازي وابن سينا وابن رشد والزهراوي وابن البيطار.. وغيرهم من عباقرة علوم الطبيعة والرياضيات والفلك وغيرها، ولم تضق العربية بشيء ترجموه، أو شيء ابتكروه. وكانت هي لغة العلم الأولى - بل الوحيدة - في العالم لعدة قرون.

وقد قام مجمع اللغة العربية في القاهرة، بجهود مشكورة في وضع المقابل العربي للمصطلحات العلمية العالمية، وقامت مجامع شقيقة له في دمشق وبغداد وعمان، ومكتب تنسيق التعريب في الرباط -بجهود طيبة كذلك في هذا المجال. بل قام المجمع الأردني بتعريب عدد من الكتب الشهيرة الأصيلة في بابها: في الفيزياء والكيمياء والإحياء والرياضيات، حازت إعجاب أهل الاختصاص، ودلت على أننا لا ينقصنا إلا صدق الإرادة، وتعاون أهل الخبرة، وتنسيق العمل.

ومن عدة عقود من السنين بدأت جامعة دمشق تجربة في ذلك، في تدريس الطب والهندسة وغيرها بالعربية، ينبغي أن يُستفاد منها، ويُبنَى عليها، ويستكمل ما فيها من جوانب القصور.

وأن عيبا على أمة العرب - ولديهم أكثر من خمسين جامعة - أن يعجزوا عن تعريب لغة العلم، وفي العالم أمم دونهم في الشرق الأدنى والأقصى تكتب العلم بلغتها، وتدرسه بلسانها.

والأزهر أولى الجامعات أن يأخذ زمام المبادرة، ويعد نفسه لأداء هذا الواجب نحو لغة القرآن، ولسان الإسلام، وبهذا يؤدي خدمة جليلة للعربية وللإسلام وللعلم وللأمة.

وها هي اسرائيل بجوارنا قد استطاعت بتصميمها وحسن تخطيطها أن تجعل من لغتها العبرية -وهي لغة ميتة- لغة علم وتأليف وتدريس.

وأغرب من ذلك لغة «رومانيا» من بلاد أوروبا الشرقية، وهي لغة لا يتكلم بها إلا بضعة ملايين نسمة، فرضتها لغة للعلم والدراسة فى جامعاتها ولم تقل: إن ذلك مستحيل.

• مجمع البحوث الإسلامية:

مجمع البحوث الإسلامية هو الوارث لهيئة كبار العلماء، ويمتاز عنها - من الناحية الرسمية - بأن له الصفة العالمية، ويجب أن يكون عدد من أعضائه من كبار علماء العالم الإسلامي.

وهو كما نص قانون التطوير «الهيئة العليا للبحوث الإسلامية، وتقوم بالدراسة في كل ما يتصل بهذه البحوث، وتعمل على تجديد الثقافة الإسلامية، وتجريدها من الفضول والشوائب وآثار التعصب السياسي والمذهبي، وتجليتها في جوهرها الأصيل الخالص، وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى، وفي كل بيئة، وبيان الرأى فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتعلق بالعقيدة وحمل تبعة الدعوة».

فهل أدى المجمع هذه الرسالة، وقام بحق هذه المهمة؟! وهل يضم من الرجال الأقوياء الأمناء من ينهض بالعبء؟!

لقد ضم المجمع في سنواته الأولى عددًا لا بأس به من كبار العلماء الذين شهدت لهم آثارهم بطول الباع في معرفة القديم وفهم الجديد، وخصوصًا من علماء مصر، وإن كان أخذ عليه أنه لم يضم رجالاً من عمالقة الفكر عرفهم العالم الإسلامي كله، من أمثال أبي الأعلى المودودي وأبى الحسن الندوي، ومصطفى الزرقا، ومحمد المبارك، وغيرهم ممن لم ترض عنهم السياسة المصرية حينذاك.

وهذه النقطة هي موضع الخطر في تكوين المجمع واختيار أعضائه إلى اليوم، فلا زالت الاعتبارات السياسية المحلية - بجوار اعتبارات داخلية أخرى - هي التي توجه الترشيح وتتحكم في الاختيار. ولهذا حرم المجمع من شخصيات مصرية وعربية وإسلامية، لها وزنها وقدرها في ميدان العلم والفكر الإسلامي، على حين دخل المجمع من لا يعرف له كتاب يقرأ أو إنتاج يذكر. بل هو كما يقول الفقهاء في بعض أنواع الماء: «طاهر في نفسه، غير مطهر لغيره»! حتى انتهى المجمع أخيرًا إلى حالة من الركود والرقود، أشبه ببحيرة من الماء الآسن! ولم نر لهذا المجمع منذ سنين أية بحوث جادة، تدل على أنه لم يزل على قيد الحياة! والواجب إعادة النظر في

تكوين المجمع، حتى تدب فيه الروح، وتعود إليه الحياة والحركة، وتعود معه الثقة إلى المسلمين في العالم بالأزهر وعلم الأزهر، وعلماء الأزهر. أما أن يظل كما هو الآن، مبنى بلا معنى، وتمثالاً بلا روح، ينطق العالم وهو صامت، وتتحرك الحياة وهو ساكن، فعدمه حينئذ خير من وجوده، ولا حول ولا قوة إلا بالله!.

****

النادي الشبابي

خاتمة

• مطلوب للأزهر كما هو مطلوب منه:

بقيت وقفة لابد منها لكي ننصف الأزهر:

طالبنا الأزهر بالكثير من الواجبات، ومن الإنصاف أن نطالب له بالحقوق، فكل واجب يقابله حق.

من حق الأزهر أن توفر له الحرية الكاملة في أداء أمانته، وتطلق يده في الدعوة والتوجيه، حتى يقول ما يريد لا ما يراد له، ويعلم ما يوجبه الإسلام لا ما تفرضه السلطة. ويقدم ويؤخر حسب مراتب الناس في الدين والعلم، لا وفق درجاتهم في القرب من السلطان أو البعد عنه.

لابد أن ترفع الأيدي عن الأزهر، ويبعد عنه سيف الإرهاب وسوط التخويف. فالإرهاب لا ينتج إلا عبيدًا. أما الأبطال من الدعاة والمربين، فلا ينتجهم إلا مناخ الحرية.

ومن حق الأزهر أن يوفر له المال اللازم، حتى يقوم بالدعوة والتعليم على مستوى مصر، ومستوى العالم العربي، ومستوى العالم الإسلامي. ومستوى العالم الإنساني. وحتى يستطيع مقاومة الخطط الجهنمية ضد الإسلام، التي يعدها له الشيوعيون واليهود والنصارى.

لقد نشرت الصحف والمجلات أن المبشرين البروتستانت في أمريكا عقدوا في سنة ١٩٧٨ مؤتمراً لهم في ولاية «كلورادو» من الولايات المتحدة. أطلقوا عليه «مؤتمر تنصير المسلمين في العالم» ورصدوا لهذه الغاية «ألف مليون دولار»!! وقد اتسمت أبحاثه بالجدية، وقراراته بالسرية.. ولم يعمدوا فيه إلى كثرة الكلام، بل إلى التخطيط والتنظيم.. وقد شرعوا في التنفيذ، فوفروا المال، وأعدوا الرجال. ولا غرو أن أطلق عليه بعض من نشر الخبر عنه «مؤتمر حكماء كلورادو» تشبيهًا له بمؤتمر «حكماء صهيون» الذي أسفر عن القرارات والبروتوكولات الشهيرة التي كان يظن أنها مغرقة في الخيال، فإذا هى تنفذ بالفعل، على وفق ما أراد واضعوها. سواء كانت هذه البروتوكلات حقيقة أم أسطورة؛ كما يرى الكثيرون وأنا منهم!

فهل تهيأ للأزهر المال؟ وهل أعين على إعداد الرجال؟

ومن حق الأزهر أن يكون أزهر للمسلمين جميعًا لا لمصر وحدها. ومعنى هذا أن يكون له الصفة العالمية الإسلامية لا الصفة الإقليمية المصرية. وهذا يوجب أن يكون للمسلمين رأي في توجيه الأزهر، وفي اختيار شيخ الأزهر. وطالما اقترح المخلصون من علماء الأزهر أن يكون شيخه الأكبر منتخبًا من علماء المسلمين وليس معينًا من سلطة تنفيذية محلية. وبهذا يصبح شيخًا للإسلام بالفعل لا مجرد شيخ للأزهر.

ومن حق المسلمين على الأزهر: ألا يُوَرِّط نفسه في السياسة المحلية، وتقلبات أهوائها فيغدو لها تابعًا، بعد أن كان متبوعًا، وسامعًا بعد أن كان مسموعًا. تطلع منه الفتاوى لتبرير تصرفاتها، وتوعز إليه بتأييد مواقفها، ودعم سياستها، فيسارع إلى البيانات ينشرها، والتهنئات يزجيها. وكثيرًا ما يغير الساسة، مواقفهم، فينتقلون من يمين إلى يسار، أو من شرق إلى غرب، أو من حرب إلى سلام، أو بالعكس.. ولا يجدون هم فى ذلك حرجًا، فالسياسة عندهم لا ثبات لها، وهنا يراد من الأزهر أن يحلل ما كان قد حرم، أو يسقط ما كان قد أوجب، أو يثبت ما كان قد نفى.. فيستجيب ويفعل، بدعوى أن اجتهاده قد تغير! والشعوب لا تصدق هذا، بل تقول: إنه أمر فأطاع، أو رَغّب فرغب، ورُهّب فرهب! وبخاصة أن القضية التي هي موضوع الفتوى واحدة، والظروف هي هي لم تتغير، والمسرح بقصته وممثليه ونظارته ومديريه لم يتبدل منه شيء!

ومن حق الأزهر، وحق الإسلام على الساسة والحكام في مصر: أن ينزهوا الأزهر عن تقلبات السياسة، وألا يورطوه في مشكلاتهم، ويعرضوه للتهمة من جماهير المسلمين في الشرق والغرب، ويسقطوا من هيبته التي اكتسبها على مر القرون.

ولو أنهم فعلوا ذلك وارتقوا بالأزهر عن دوامة السياسة الإقليمية المتبدلة، لحفظوا للأزهر مكانته العربية والإسلامية والعالمية، ولكسبوا

بذلك لمصر مكانة عظيمة في أمة الإسلام، مكانة يحرص عليها كل من كان له لب.

أقول هذا وأنا أعلم أن الساسة عندما يخوضون معاركهم مع خصومهم لا يبالون بشيء، ولا يسمعون لهذه النصائح المثالية، وإنما يجندون كل شيء -حتى الدين ومراكزه ورجاله- للتغلب على خصومهم!

ولهذا يبقى الأمر أمر الأزهر ذاته. عليه أن يقدر قدر نفسه، ويضع نصب عينيه قول الله تعالى لرسوله: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

****

النادي الشبابي

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

مقدمة ٣

رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد ١٧

عالم اليوم فى حاجة إلى منقذ..... ١٧

حاجة البشرية إلى أمة ذات رسالة ٢٠

أمة اليهود لا تصلح لحمل رسالة الإنقاذ ٢١

الأمم المسيحية لا تصلح للإنقاذ ٢٢

الأمة الإسلامية وحدها المرجوة للإنقاذ ٢٤

رسالة العالم العربى ودوره فى أمة الإسلام ٢٥

دور مصر فى رسالة الإنقاذ ٢٨

رسالة الأزهر فى إنقاذ البشرية ٣٢

شهادة التاريخ ٣٤

الأزهر فى مقاومة الاحتلال ٣٥

الأزهر فى مقاومة الاستبداد ٣٧

فترة الركود والتخلف ٤١

رسالة الأزهر اليوم ٤٥
الأزهر مصنع للدعاة إلى الله ٤٨
الأزهر حامل رسالة الإصلاح والتوجيه للمجتمع..... ٥٠
واجب الدعوة والتوجيه ٥٢
واجب تنوير العامة ٥٣
واجب توجيه الخاصة ٥٥
واجب ترشيد الصحوة ٥٧
الأزهر والعالم الإسلامى..... ٥٨
الأزهر وهداية العالم..... ٦٣
عوامل النجاح ومقوماته فى رسالة الأزهر ٦٥
عوامل النجاح ٦٥
أولاً: استعداد شعوبنا للتدين وتقبلها لفكرة الإسلام ٦٥
ثانيًا: عظمة الرسالة التى يدعو الأزهر إليها: رسالة الإسلام..... ٧٠
ثالثًا: حاجة العصر الذى نحن فيه ٧٣
مقومات النجاح ٧٤
١- الدراسة الواعية للإسلام وللعصر ٧٥
٢- القدوة الحسنة ٧٨

٣- أخلاق العلماء ٨٠
٤- الدعوة والحركة فى المجتمع ٨٦
إذا غاب الأزهر ٨٧
١- ظهور التفكير المادى ٨٨
٢- التفكير المخرف ٨٨
٣- التفكير الدينى المتطرف ٨٩
الأزهر.. والنقد الذاتى ٩١
انتقاء الطلاب ٩٢
انتقاء الأساتذة ٩٤
أهمية الجامعة ٩٧
مراجعة المناهج ٩٩
- علم التوحيد ٩٩
- علم الفقه ١٠٤
- قضية القديم والجديد ١٠٨
مجمع البحوث الإسلامية ١١٧
خاتمة: مطلوب للأزهر كما هو مطلوب منه ١٢٠
محتويات الكتاب ١٢٥

****

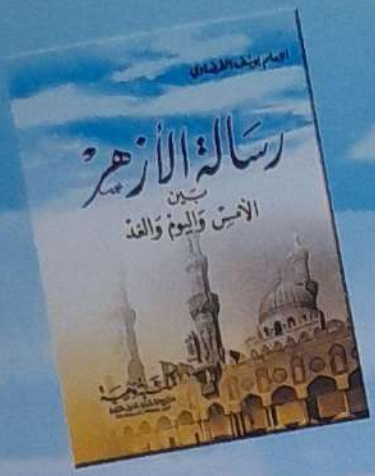

رسالة الأزهر
بين
الأمس واليوم والغد

كان الأزهر – ولا زال – وسيظل – منارة للعلم مضيئة للعالم الإسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها .. بتراثه وإمكاناته وعلمائه وجامعاته التى تخرج الآلاف من الأساتذة والمعلمين ودعاته الذين يحملون دعوة الإسلام إلى كل مكان.

وإذا كان البناء الشامخ – بعد مرور أكثر من ألف عام – يحتاج إلى طلاء جدرانه .. فهو أيضاً يحتاج إلى " النقد الذاتى " فى الأساليب والمناهج – بما يتفق وأسلوب الحياة المعاصرة .

وهذا الكتاب "رسالة الأزهر – بين الأمس واليوم والغد" يسلط الأضواء على الجوانب "الإيجابية" للأزهر والأزهريين. ويلقى الضوء على بعض الجوانب "السلبية" ويوضح ما هو " مطلوب للأزهر كما هو مطلوب منه".

والمؤلف: الإمام يوسف القرضاوى – عالم أزهرى غيور على دينه وداعية إسلامى ، زار العديد من البلاد العربية والإسلامية والأوربية وساهم فى كثير من المؤتمرات والجامعات الإسلامية – فى طول الأرض وعرضها .. ومن المكابدة والمعايشة .. يقدم لنا صرخة غيور على أزهريته.

ويسر "مكتبة وهبة" أن تقوم بنشر هذا الكتاب – ليعرف العالم العربى والإسلامى مقدار "رسالة الأزهر – بين الأمس واليوم والغد" وبالله التوفيق.

مكتبة وهبة

النادي الشبابي